علي فائق
البرجاوي

مع ناظم حكمت في سجنه

مذكرات لبناني زامل الشاعر في سجن بورصة



تعريب:
زهير السعداوي

دار ابن خلدون
كورنيش المزرعة ـ بناية ريفييرا سنتر
بيروت هاتف ٣١٢٢٣٥
ص. ب. ١١٩٣٠٨

الطبعة الاولى
آذار ـ مارس ١٩٨٠

علي فائق برجاوي

مع ناظم حكمت في سجنه

مذكرات لبناني زامـل الشاعر
في سجن بورصـة

تعريب زهير السعداوي

دار ابن خلدون

توطئة

منذ الثالث من شهر حزيران (يوليو) عـام ١٩٦٣ ، يثوي ناظم حكمت في مدفن « نوفودوفيتشيي » بالعاصمة السوفييتية موسكو، بعد ان امضى في سجون تركيا خمسة عشر عاما ، او تزيد ، هي زهرة عمره ، ورونق شبابه .

وندر بين الشعراء من عانى من الظلم ، والحيف ، ومن الالم والعذاب ما عاناه ، حتى كانت صيحته :

« انا الذي تجسدت فيه مدينة استنبول .. فاشهد يا شعب تركيا ، وآن لك ان تشهد ما اعاني من آلام .. » .

كان ناظم حكمت عملاقا بكل ما يحمل الوصف من معـان . غير ان الحياة في السجون التي كانت تفتقر الى جميع شروط المحافظة على الصحة ، والتي كانت تتميز باجـواء الرطوبة ، والعفن ، قد هدت بنيان هذا العملاق ، ذي العينين الزرقاوين ، زرقة بحر « مرمرة » وذي الشعر الاشقر ، الذي يشبه في ملامحه يسوع المسيح .

وكان في الاعوام الاثني عشر الاخيرة من حياته ، أي منذ شهر حزيران من عام ١٩٥١ ، قد جال في الارض ، وزار بلدانا كثيرة ، كان اولها موسكو ، التي جعلها مقرا له ، ثم اقترن بفتاة من اهلها ، قبل انينطلق لزيارة جميع البلدان الصديقة ، ما عدا الولايات المتحدة الاميركية .

وكانت له ، وما زالت صداقات في العالم اجمع ، فقد كان عالمي الافق ، والفكر ، ووطنيا تركيا بالـغ الحماســـة ، والولاء لوطنه . وكانت استنبول مهوى فؤاده ، المكان الوحيد الذي كان ينعم بالعيش فيه ، كما اعلن . ويقيني ان قليلين من النــاس قد أحبوا وطنهم ، حب ناظم حكمت لوطنه . فقد كان شديد الميل الى ان يستقر في تركيا، فلا يتحول عنها الى اية بقعة من بقاع الارض. وأملنا ان يأتي يوم يقدر فيه الحكام الاتراك مشاعر ناظم حكمـت الوطنية العميقة ، الراسخة ، ويعملوا على نقل رفاته الى استنبول، المدينة التي كان يؤثرها بحبه على سائر البلدان ، والتي ناجاهـا بقــوله :

« اني أنا مدينة استنبول .. وكل ما حولي بحار ، وتـلال زرق .. »

وفي قصيدة عن ناظم حكمت ، كتب بابلوا نيرودا ، الحائز جائزة نوبل ما يلي :

« انه شاعر كبير ، وشعره كان للعالم بأسره ،
ورجل كبير ينتمي الى غالبية البشر
ووطني كبير ، عذب في وطنه
ليس لناظم حكمت نظير في القرن الذي عاش فيه
واني لاعتبره المثل الحي للبطولة ، وللرقة في آن ..

وقال فيه «ميغيل انجيل استورياس » ، الحائز جائزة نوبل: « كل ما فيه كان يمثل الصراع الموصول ، الذي لا يعرف الكلل ، ضد سلطان القوى العمياء التي تجعل من الافراد والشعوب عبيدا أرقاء .. لقد كان رجلا يجابه بالشعر برابرة كل زمن ، البرابرة أنفسهم الذين توالوا عبر الايام .. واذا ما كان شعره ، وشخصه لا ينسيان ، ولا يبهتان رغم سنوات الاضطهاد ، والنفي المديدة ، فذلك لانه كان جذلا ، مدويا كرنين الاجراس .. »

واضاف : « لقد كان يجرد شعره ، شيئا ، فشيئا ، ويشغله المضمون عن الشكل . وكان يذلل شعره للوضوح ، وللصراحـة، كي ينصت اليه من أحبهم من الناس ، من الشعب التركي ، مـن

شعوب العالم أجمع ، ولكي يكون عالميا بحق .. لقد كان في شعره نشيد المقاتل من اجل السلام ، وهو في خندقه .» .

وحين توفي ناظم حكمت دعا اتحاد الكتاب السوفييت صديقه الكاتب قسطنطين سيمونوف الى أن يرئس لجنة مهمتها جمع كل ما خلفه الشاعر من وثائق ، ومخطوطات ، ورسائل . وقد انجزت اللجنة عملها ، وانك لتجد كلّ ما خلفه الشاعر محفوظا في أفضل الظروف المتاحة ضمن الوثائق الادبية للدولة السوفييتية ، في انتظار اليوم الذي يعاد فيه الى الشعب التركي.

وفي بلغاريا نشرت أثار ناظم حكمت في ثمان مجلدات باللغة التركية . وفي تركيا اعيد نشر آثاره . وظهرت في الاتحاد السوفييتي كتب، ومنشورات من آثاره ، وما زالت . وتعرض مسرحيات ناظم حكمت في مسارح عديدة ، سواء في الاتحاد السوفييتي ، أم في البلدان الغربية ، والشرقية .

وجدير بالذكر ان الاتحاد السوفييتي قد سمى باخرة جديدة باسم ناظم حكمت ، تجوب البحار منذ سنوات ، وتعرج دوما على البوسفور ، والدردنيل ، حول الشطآن التي ضمت في الماضي الشاعر الفذ ، وحنت عليه في طفولته ، وصباه ، والتي احبها كما لم يحب احد شطآن بلاده .

لقد كان لناظم حكمت اصدقاء خلص في جميع ارجاء العالم، وكان يحب ، ويقدر جميع الشعوب ، دون أستثناء ، ويتوجه في شعره الى الانسانية جمعاء . وفي ما يلي ابيات من قصيدة له ، وجهها الى ماسح احذية صغير من بور سعيد،ابان حملة السويس:

« ألسفن لا تعد ولا تحصى في بور سعيد ..
الشمس قريبة ، قريبة ، والغيوم بعيدة بعيدة ..

وفي بور سعيد صغيري منصور وهو في العاشرة من عمره يمسح الاحذية ..

انه ناحل الجسم ، مغبر الوجه والملامح .. كأنه نواة ثمرة البلح ..

انه رفيق صغيري منصور ..
ويردد دوما الاغنية نفسها ويعيد .. يا عيني .. يا حبيبي ..
يا عيني ... يا حبيبي ...
.. لقد احرقوا بور سعيد .. قتلوا منصوري الصغير ..
.. شاهدت صورته في الصحيفة هذا الصباح ..
ميت صغير .. بين سائر الاموات ..
يا عيني ... يا حبيبي ...

(براغ ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر١٩٥٦)

●

ولد ناظم حكمت في سالونيك ، وهي من أرض اليونان ، في عام ١٩٠٢ ، وفور ولادته عادت اسرته الى استنبول .

وكان جده محمد ناظم باشا رجلا واسع المعرفة ، وشاعرا يجمع بين الثقافتين العربية والفارسية ، وهو الذي صرف حفيده ناظم الى الشعر ، وحببه اليه ، ولقنه اصول نظم القريض منذ نعومة اظفاره .

اما والدته جليلة خانم ، فقد كانت رسامة ، تلقت فنون الرسم في باريس ، التي أمضت فيها اعواما . وكانت رسومها تتميز بالرقة، والعذوبة، وألوانها بالشفافية، كما تتميز بالشاعرية، والسحر الاخاذ . وكانت هي وراء موهبة ناظم في الرسم، وبراعته فيه. وقد كان قادرا لو شاء على ان يصبح واحدا من ابرع رسامي عصره ، وابعدهم شهرة .

لقد كتب عن ناظم حكمت الكثيرون ، بالتركية اولا ، ثم بسائر اللغات ، ولسوف يكتب عنه الكثيرون. وما زالت الدراسات حوله تجتذب العديد من الباحثين ، والدارسين ـ ذلك لان العمق، والانسانية ، والغنى في شاعريته السمحة تتعادل، وتتساوى . فهو دون ريب أعظم الشعراء في القرن العشرين ، ومن اعظمهم في كل عصر وزمان .

ان جميع ما نظم ناظم حكمت يعكس ايمانه بحق البشر جميعا

في السعادة ، والسلام . كما يعكس الحب الذي يكنه للناس ، لكل الناس ، ولهفته الملحاحة في ان يرى كل انسان يحيا الحياة اللائقة الكريمة . ذلك انه كان رسوليا متواضعا ، تتوغل اشعاره في شغاف القلب ، وتظل محفورة فيه لا تزول ولا تمحي.

●

كنت قد أشرت الى ان العديد من الكتاب ، ومن اصدقاء ناظم حكمت قد كتبوا سيرا عن حياته ، ودراسات حول شاعريته. ومن هؤلاء احد رفاق صباه ، واحد رفاقه في جامعة الدراسات الشرقية بموسكو ، وهو « والانورالدين » ابن آخر الولاة الاتراك في بيروت . وقد كتب دراسة واسعة عن ناظم حكمت ، ضمها كتاب متداول ، معروف .

ومن الذين كتبوا عن حكمت « زكريا سرتيل » الصحفي ، الذي نشر ذكرياته عنه .

غير ان احدا من هؤلاء لم يتحدث عن فترة السنوات الواقعة بين عام ١٩٣٤ و عام ١٩٣٨ ، التي زافقت فيها ناظم حكمت ، سواء في سجن « بورصة » أم في استنبول .

ذلك ان الشرطة الفاشية اعتقلتني عام ١٩٣٣ في مدينة بورصة ، حيث امضيت اسبوعا في زيارة بعض الاصدقاء .

كان ذلك في الاعوام المظلمة ، اعوام صعود النازية ، وحريق الرايخستاغ الذي كان وسيلة للقضاء على المؤمنين بالديمقراطية، اعوام الغزوات ، واعوام المذابح التي تعرض لها شعب اثيوبيا على ايدي فاشيي موسوليني الايطاليين .

وفي تلك الفترة كان خريف عام ١٩٣٣ ، الذي تميز بالايجابية وذلك حين زار تركيا وفد سوفييتي ضم في ما ضم المرشال فوروشيلوف ، والقوزاق الاسطوري المرشال بوديني ، وكاراخان وسواهم .

كنت حينذاك طالبا فتيا في السابعة عشرة من العمر ، مفعما بالحماسة الى العدالة الاجتماعية والى السلام بين البشر . وكنت

مستعدا في سبيل تحقيق هذا الحلم للاشتراك ، وسائر المثاليين في النضال ضد النازية ، والفاشية ، وضد المظالم الاجتماعية .

كان ذلك بطبيعة الحال حلم فتى رقيق القلب، مرهف الحس، حلم فنان طوباوي ، في صدق، واخلاص .

واعتقلت ، واحتجزت في زنزانة ضيقة ، نافذتها على مستوى الارض في الخارج . وبعد اشهر ثلاثة نقلت الى الطابق الثالث في سجن بورصة ، الطابق الذي كان ناظم حكمت ورفاقه قد احتجزوا فيه .

واني لاكتب هذا الكتيب لكي أصف ايام الحياة التي أمضيناها في هذا السجن ، في اخاء ، ومساواة تامين .. ولكي أؤكد لاجيال شعبي العربي ، الفتية ، الناشئة ، ان مبدأ بناء وطن سعيد، تسوده الاخوة ، ليس حلما ، ولا اسطورة !..

علي فائق برجاوي

مدينة سو ـ نيسان عام ١٩٧٩

ملاحظة : كتب المؤلف مذكراته باللغة الفرنسية وهو الان قعيد الفراش في فرنسا . والمؤلف من بلدة برجا اللبنانية ـ الاقليم ـ وقد سافر في مطلع شبابه في بداية الثلاثينات الى تركيا لاكمال دراسته الجامعية . واعتقل هناك لنشاطه الادبي والفكري . وأودع سجن بورصة حيث كان الشاعر الكبير ناظم حكمت معتقلا . وزامل علي الشاعر في سجنه حوالي الخمس سنوات.

((الناشر))

الفصل الأول

سجن بورصة

٣ حزيران (يونيو) عام ١٩٦٣ .

في أمسية فاترة في الثالث من حزيران بلغني نبأ وفاة ناظم حكمت ، وأنا في بيتي الصغير بالضاحية الجنوبية من باريس، البعيد عن الضوضاء ، وعن صخب المدينة ، والقريب من الطبيعة الجميلة ، والخضرة البهية الساحرة .

وكان للنبأ وقع الفجيعة .. ذلك لان نبأ فقدان من تحب من الناس ، يحدث فيك صدمة أشد وقعا حين تكون نائيا ، منك وانت قريب ممن تحب ، وتؤثر .

حين نقل الي مذياع الراديو هذا النبأ الفاجع ايقنت بانني على وشك الهلاك ، فقد ضاق صدري بالغصة ، وجفت حنجرتي، واحتبست انفاسي . فقد كانت وفاة ناظم حكمت تحمل من المعنى ما يفوق معنى فقدان انسان عزيز ، قريب الى القلب والروح . وشعرت بانني قد حملت من بيتي الصغير الوادع ، وعدت ثلاثين عاما من يومي الى أمسي ، الى شبابي الاول ، كما على جناحي طائر مسحور ، من طيور الاساطير . لم استطع ان أصدق ان ناظم حكمت قد توارى ، فقد كانت يد الموت اعجز من أن تمتد اليه ، كما ان ملك الموت يشفق في غالب ظني من ان يتناوله بمنجله الذي يحصد الارواح .

وكان يخيل الي ان ناظم حكمت ماثل امامي عملاقا في جسد مرهف ، رقيق ، كما المسيح في لوحات الرسامين ، أشقر الشعر، نحاسية ، ازرق العينين ، زرقة السماء في عمقها الذي لا يحد ، طفل النظرة ، في براءة ، وطهر عجيبين . وامسية الثالث من حزيران هذه ، أعادت الي ذكرى امسية فاترة اخرى في مدينة بورصة التركية ، منذ ثلاثين سنة مضت . يوم كنا في السجن نرقب من خلف قضبان السجن ، وفي ضوء القمر الساطع ، رجال الحرس في جيئهم وذهابهم ، ونسمع وقع اقدامهم الغليظة على بلاط باحة السجن الواسعة . وكانت سلوانا الوحيدة اننا كنا ندخن سجائر دعيت « سجائر الفلاحين » ، بعد ان نقسم الواحدة منها نصفين . كان ناظم كعادته ، في أحسن حال ، بهي الطلعة، يضج دم الشباب والعافية في عروقه . اما انا فقد كنت طالبا في الثامنة عشرة من عمري ، رقيق البنيان ، مكتمل الجسم .

كان ذلك في ابان الربيع ، وكنا نشاهد في ضوء القمر ، والسماء الجلواء الصافية ، وعبر نصول البنادق التي يحملها الحرس ، قناديل اكواخ الفلاحين ، واضواء مصابيح البساتين التي كانت تخبو الواحد تلو الاخر ، ونرقب من الناحية الاخرى مصابيح سيارات المنعمين ، والسعداء من المواطنين وهي تصعد بهم متجهة الى « اولوداغ » منتجع الرياضة الشتوية شتاء ، ومنتجع المتع المختلفة في الربيع والصيف .

كان ذلك في عام ١٩٣٤ ، وكنا قد نقلنا الى الطابق الثالث من الجناح الغربي في السجن . وكنت اشاهد ناظم حكمت واحار في امره ، وفي ما اذا كان سعيدا ، راضي النفس ، ام انه كان يخفي وراء السعادة الظاهرة، والارتياح المفتعل احزانه الكبيرة التي تثقل عليه . ذلك ما لم استطع ان ادركه ، أو أتبينه ، في تلك الفترة ، وفي سنواتها التي كانت تمر بنا مرور فرسان ينهبون الارض بخيولهم نهبا .

وكان ما مر بنا من تجربة ، وما افدنا من معرفة ، وما ذقنا من نعيم ، ومن شقاء ،من ألم وعذاب ، قد جعلنا ننظر الى الاخرين

نظرة متباينة عما الفنا ، وجعلنا نبني في دقة وعناية احكامنا التقويمية على الاخرين . كما علمنا ذلك كله ان ليس لاي شيء، ولاية قيمة ، ولاي نظرية او رأي ، ثبات ، واستقرار على مدى الايام . فلقد اصبح الذين كانوا مبعدين ، منبوذين ابطالا تهتف لهم الجماهير ، وترفعهم فوق المناكب .. وتدور الايام ، وتتوالى الاحداث ، فلا تجد من خلالها الا التقلب في المواقف ، والاراء ، وفي اشكال المواقف والاراء . غير ان ما اهدف اليه ، هو أن أسرد وقائع السنين التي أمضيتها وانا قريب من ناظم حكمت ، متعاون واياه ، في مراجعة بعض كتاباته ، ومشاريعه الادبية . وأود ان اكشف كذلك عن الجانب الانساني والاجتماعي فيه من خلال وقائع الحياة اليومية . ولن تتجاوز مهمتي حدود ذلك . ومع ادراكي بان هذه المهمة لن تكون سهلة ، ميسورة ، فانني سوف اسعى الى ذلك ما اسعفتني الطاقة ، ومكنني الجهد .

وأبادر الى التأكيد بان القرن العشرين قد خسر في غياب ناظم حكمت شاعرا عالميا كبيرا ، وفنانا ، انسانيا ، ملهما ، ورجلا فذا كان حبه لبني البشر ، وقناعته بالاخوة بينهم ، يغطيان العالم كله ، مشرقه ، ومغربه .

الاعتقال

كانت الظلمة حالكة ، والشوارع مقفرة في مدينة بورصة ، الا من بصيص نور اعمدة الضوء الخافت ، المتهافت . ومن حين الى آخر كانت تسمع صفارات حرس الليل وهم يقومون بدورياتهم، ترسل اصداء مختنقة في صمت المدينة الاسود .

ووسط هذه الظلمة المخيمة على المدينة الراقدة ، كان يتناهى ضوء خافت من مبنى يقع وسط المدينة ، ضوء يصدر عن مكتب قاضي التحقيق ، المتعب الساهر ، الذي وصلَ ليله بنهاره ، وهو يستجوب المتهمين لانتزاع اعترافات منهم .

وكان كاتب الجلسات أشد تعبا،وارهاقا من قاضي التحقيق.

فقد كان منذ الصباح الباكر يضرب على الالـــة الكاتبة محــاضر التحقيق في عشرات من الصفحات البيضاء حتى لم تعد اصابعه تطاوعه على كتابة المزيد .

وحين مثلت امام قاضي التحقيق كان على وشك الانهيار ، والتداعي من فرط الجهد والارهاق ، فاستحال الى كتلة مـــن الحفيظة والحقد تتحفز للانقضاض على المتهمين الذي يتوالى مثولهم بين يديه . كان الرجل في الخمسين من العمر ، قصير القــامة، تسلل من خلال نظارتيه نظرات فيها كثير من الخبث ، والموجدة، وتشيع في ملامح وجه جاف الملامح ، مثير للنفور .

وكنت قبل ان أمثل لديه ، قد دعيت الى بورصة لزيــارة قريب لي وزوجته . وكان مضيفي العجوز نائب والي طرابلس في لبنان ، يوم كان والدي في منصب النائب العام بالمدينة في العهد العثماني.

وفي مساء اليوم الثالث من اقامتي في دارة الصديق القديم، دخل علينا من باب الحديقة مفتشان في الشرطة . وكنت والعجوز الودود ، وزوجته الرقيقة جالسين في ظل عريشة في الحديقة. وتقدم مني الشرطيان وامسكا بذراعي دون رفق ولا لين ، وامراني بأن اتبعهما . وصعق الزوجان ، وحاول مضيفي ان يتكلم فخانه الكلام ، واعجزه النطق من هول المفاجأة .

الفــأس فوق انقره ..

كنت قد حفظت اشعار ناظم حكمت ، منذ سنوات الدراسة، وكانت لدي ورفاقي الاسطوانة التي سجلت عليها قصيدة « بحر قزوين » بصوت الشاعر . وكان رفاقي جميعا يحفظون عن ظهر القلب قصيدة « الصفصاف الباكي » ، التي كانوا يرون فيهــا وصفا لوفاة لينين . اما مجموعة قصائد ناظم حكمت « الاسطر ٨٣٥ » ، التي نشرت في عام ١٩٢٩ ، فقد كان الطلاب يعتبرونها رمزا للثورة الاتية . ذلك لان الرقم ٨٣٥ يشير الى ارتفاع مدينـة

انقره عن سطح البحر . ولكلمة سطر في التركية معنيان ، سطر الكتابة ، والفأس . وعلى هذا يكون المعنى « الفأس سوف تسقط فوق رأس انقرة » ، اشارة الى بدء الثورة . .

بعد ذلك ، وفي السجن ، رويت لناظم حكمت قصة «الفأس» فحدق في متأملا ، ثم اغرق في الضحك وقال : «انتم ايها الطلاب اشقياء .. ولا اكتمك انني لم افكر بذلك حين كتبت شعر هذه المجموعة » .

وفي عام ١٩٣٢ اخرج المخرج المسرحي الشهير آنذاك « ارطغرل محسن »، مسرحية ناظم حكمت « الجمجمة » . وبعد ثلاثة ايام من الاعلان عنها صدر قرار للسلطة بمنع عرضها.

كانت اشعار ناظم حكمت التي نشرت بعد عودته من موسكو على شفاه الطلاب ، وذلك اعتبارا من عام ١٩٢٨ . وظهرت في جميع معاهد استنبول آنذاك جمعيات تحمل اسم «اصدقاء ناظم حكمت » .

غير ان جميع مظاهر هذا التعاطف الشعري مع ناظم حكمت لم يدم طويلا . فحين نشر اشعاره التي هجا فيها القصاص ـ الدبلوماسي « يعقوب قدري »، والقصاص ـ الصحفي « بيامي صفا » ، اعتقلته السلطات ، واعتبرت شعره تخريبا . ومنذ ذلك الحين كان الطلاب في المعاهد والجامعات ، وسواها يتجنبون الحديث عن ناظم حكمت ، وتداول شعره ، الذي يعتبر امرا خطيرا . .

عربي أسير المباحث

في المساء مثلت امام قاضي التحقيق ، ذلك القاضي الذي يتبدى رمزا ، واداة للمجتمع البورجوازي المتعطش الى الانتقام ، ويدافع عنه .

لقد مضى على ذلك نصف قرن ، ما زلت اتمثل وجه القاضي

الوقح الملامح ، والقسمات ، واسنانه الصفراء المتهيئة للافتراس، وابتسامته الوحشية ، المتفحصة .. وفي ذلك ما يثير في جسدي حتى اليوم القشعريرة ، والارتجاف ، كما لو هبت عليه ريـــاح جليدية ..!

ولم اكن في حاجة الى كثير من الفطنة ، والالهام ، كي اتنبأ بالقرار الذي سوف يصدر ، فقد كان اعتقالي مقررا من قبـل . وكنت منذ احتجازي اسبوعا في زنزانات مقر الامين العام اشعر بالتعب ، وبالتعذيب ، وبالوحشة ، وتلاشى من امامي كل زيف، وكل مشهد ، وراء ضباب كثيف ، قاتم .

كانت قسوة شرطة المباحث في بورصة معروفة ، ذائعـــة في تركيا ، وما زالت .

وضرب قاضي التحقيق المنضدة بقبضة يده العاجزة فـي محاولة اخيرة لانتزاع اعتراف ما مني ، وصاح : « سوف تندم ايها الفتى ، سوف تندم طول عمرك على عنادك هذا .. أنك تحسب في عقلك الذكاء ، والدهاء ، ولكنني سأقذف بك الى الجحيم ... »

واخرجني ثلاثة دركيين من حضرة هذا القاضي الذي كـان يتميز حقدا ، وسخطا ، وشعورا بالقصور ، واقتادوني مكبـــل اليدين الى سجن « بورصة » ، حيث اودعت ايداع الكلاب زنزانة سوداء ، تقع في الطابق الارضي ، ولا تضم اي نوع من الفرش .

في تلك اللحظة شعرت ان شيئا مـا في نفسي قد تحطم فقد كنت في السابعة عشرة من عمري ، مفعم القلب بحب الاخوة، والسلام ، ولم اكن قد أسأت او تعمدت الاساءة الى احد .

كان الذنب الذي اقترفت حيال السلطة ، انني كنت متفوقا، مبرزا في دراستي ، وانني كنت اشعر بالزهو بانني عربي ، متضامن مع العرب وقضاياهم .

رســالة من نــاظم

كانت زنزانتي في طابق يقع تحت الارض ، ولكن بصيصـا من النور كان يتسلل اليها من نافذة ، او بالاحرى من فجوة بين القضبان السميكة . ولم اكن ادري ما سوف امضي من الزمن في هذه الزنزانة ، التي لم يكن فيها سوى ما يشبه المقعد الخشبي، دون سواه . وقد علمت بعد ذلك بان هذه الزنزانة كانت واحدة من الزنزانات التي يسجن فيها المحكومون بالاعدام . وبما انني كنت متهما بجرم سياسي كان محرما علي ان اتصل بأي انسان ، أو استقبل اي انسان . ومن حسن طالعي ان صديق والــدي القديم نائب الوالي السابق ، قد بعث الي بفراش ، وبحرامين من الصوف ، وببعض الاطباق ، والملاعق ، والشــوك ، وبطنجرة، ومدفأة ، وقدح من معدن الالومنيوم ــ لان الاواني الزجاجية كانت محظورة ، لانها قد تستعمل في الانتحار بقطع الشرايين ــ ، وببعض الطعام والمؤن .

ويعود سردي لهذه التفاصيل الى رغبتي في الاشارة الـى ان الطعام لا يقدم في السجون التركية ، بل يترك كل سجيــن ليتولى امر عيشه ، وتدبير ما يحتاج اليه ، بوسائله الخاصة ..

وكان اكثر ما يشق علي انني لم اكتسب تجربة عملية في الحياة، فقد كنت في مشارف نهاية سن المراهقة ، ولم اعرف من شؤون العيش الا ما عرفته حين كنت طالبا داخليا في احد المعاهد، التي تشرف عليها وزارة التربية الوطنية .

وكان غاية ما اعلم ان ناظم حكمت نزيل في السجن نفســه مع ثلاثة اخرين من المعتقلين السياسيين . وكنت قد طلبت الى الحارس الذي حمل امتعتي مع نفر من المحكومين ، ما اذا كان من المستطاع ان أحصل على صحيفة اقرأها كل يوم . ونظر الي الرجل الذي يوحي بالطيبة نظرة عطف ، وقد يكون له ولد في مثل سني، واجاب : سوف انظر في ذلك ، وابذل ما استطيع .

مرت عشرة أيام ، وانا حبيس الزنزانة التي هي اشبه مــا

تكون بالنعش . وفي صباح احد الايام كنت أطل من خلال الفجوة التي يتسلل منها بصيص من النور ، وأسرح الفكر في مستقبل الايام وما ينتظرني من احوال السجن ، والملاحقة . وقد بدا لي المستقبل قاتما ، غائما ، تظلله سحابة سوداء فاحمة ، فتملكني الحزن الدفين ، والاسى الذي لا يحد .

حزن ، وأسى يراودان فكري الشارد، ويلازمانه كيفما خطر، وجال . وكان مصدر بهجتي الوحيد ، ومصدر راحة نفسي ما كان يشيع في الباحة الكبيرة من أشعة شمس الشتاء الباهتة ، التي كنت اتمتع بها ، وبدفئها الموهوم ، عبر فجوة ضيقة .

كان بعض السجناء يتجولون في الباحة ، وكنت ألمح اشباح حوالي مائة من رفاقي في البؤس ، والشقاء ، ويخيل الي ان الزمان قد توقف بالنسبة اليهم ، فلا هم شباب ، ولا شيوخ ، لا أحياء ، ولا أموات ، وان لا عد للايام والسنين في حياتهم ، ولا حساب .

بعد حوالي نصف الساعة دخل هؤلاء ، وخرج سجناء آخرون الى الباحة ، وكانوا حوالي الثلاثين ، يشبه مظهرهم ، اكثر ما يشبه مظهر أعيان المدن ، مما جعلني أدرك أنهم من السجناء السياسيين ، وان ناظم حكمت لا بد ان يكون فيهم . كانوا يتجولون قرب الجدران العالية ، التي كانت تحيط بالبناء ، بعيدا عن رنزانات المعتقلين الاخرين من سجناء الحق العام ..

وفجأة لمحت ساقين تتنقلان في سرعة بالقرب من نافذتي، وشاهدت رزمة تسقط تحت القضبان السفلية . ترددت لحظة، ثم تناولت خطفا الرزمة ، وسحبتها الي . كان فيها بعض الصحف والمجلات باللغة التركية ، وثلاث نسخ من مجلة « لو » القديمة، والعدد الاخير من صحيفة «الاومانيتيه». وحين تصفحت المجلات الفرنسية ، وقعت في واحدة منها على عبارة مكتوبة بالفرنسية ، وبخط اليد ، وفيها :

« تشجع ايها الاخ العزيز فـائق ، افكارنا ، وعاطفتنا معك » .

وتمعنت مليا في الخط، فاذا هو خط ناظم حكمت، وانقشعت عني الغمة ، حين وقعت على هذه العبارة ، وفارقني الشعور بالوحدة ، واليأس ، ليحل مكانه احساس بالاخوة التي تشد الازر ، وتقوي العزيمة .

وشرعت اطالع ما في هذه الصحف عند المساء ، وافكر في مدى مغامرة هؤلاء الاصدقاء الذين اتاحوا لي هذه المتعة ، وجلبوا الى نفسي هذه السلوى ، وهذا العزاء . ونمت وانا اكثر ما اكون سعادة ، ورضى .

ناظم ولغز الانسان ..

كان الشتاء قاسيا شديد القسوة ، ولم يخف سقوط الثلوج في النصف الثاني من شهر كانون الثاني عام ١٩٣٤ . وكانت نافذة زنزانتي الضيقة مغطاة بالثلج ، والكوة الصغيرة التي كانت صلتي بالعالم في الخارج مسدودة ، مما زاد شعوري بالوحدة، والعزلة.

كان البرد يتوغل في صدري ، ويشيع فيه رطوبة جليدية ، دون ان تتيسر لي وسيلة للحرارة ، والدفء ، وانا مستلق ، او جالس في كنف بطانيتين من الصوف . اما سائر السجناء ، فقد حال البرد ، والثلج دون خروجهم المألوف الى الباحة الكبيرة ، فكانوا يتجولون في الممرات ، محدثين جلبة طاغية ، موصولة، لا تترك لي لحظة من الراحة ، والسكينة ، وتحدث في اعصابي كثيرا من الضيق والتوتر . وكان حوارهم يزيد من وطأة الضوضاء التي لا تطاق ، في حين كان يومي صاخبا ، وليلي طويلا ، متطاولا، لا يبزغ فجره ، ولا يطل صباحه .

كان في الزنزانة التي تعلو زنزانتي ثلاثة اشقاء من المجرمين، حكموا جميعا بالاعدام ، ويترقبون ساعة التنفيذ . وكانوا قد جلبوا من سجن « ريزيه » وهي بلدة صغيرة على ساحل البحر الاسود ، قرب الحدود السوفييتية . وفي كل خطوة من خطواتهم،

وحركة من حركاتهم ، كان يتناهى الي رنين سلاسل قيدهم . وقد شعرت لتزايد توترهم ، وعصابهم ، ووتيرة تحركهم ، ان موعد اعدامهم لا بد ان يكون قريبا . كان ناظم حكمت قد تحدث الى هؤلاء الاشقياء ، وحدثني بعد ذلك عنهم ، على أنهم عمالقة شقر، وكان في حديثه عنهم بعض الاشفاق عليهم ، والاسى لمصيرهم ، وما انتهوا اليه .

وحدثني ناظم كذلك عن معتقل آخر بتهمة القتل اسمه سليمان حديثا عجيبا ، سبب له كثيرا من الحيرة ، والاستغراب، كان هذا الرجل رجلا فظا قاسيا ، لا تعرف الرحمة الى قلبه سبيلا . كان فلاحا في قرية قريبة من « بورصة » في الخامسة والثلاثين من العمر ، وكان قصير القامة ، متين البنيان ، شارد الخطوة .

روى لي ناظم قصته فقال : « في ليلة من الليالي كان بينه وبين شقيقته وزوجها خصام بسبب ميراث . وفي احدى الليالي تسلل الى دار شقيقته ، وكل من فيها نيام . فعمد الى ذبح شقيقته وزوجها ، وابنائهما الثلاثة . ثم حمل جثث الابناء الى حيث جثة والدهما ، وجثة والدتهما .

وحكم على الرجل بالاعدام ، ولامر ما عادت محكمة الاستئناف فبدلت الحكم الى السجن مدى الحياة » .

واضاف ناظم : « وكان لهذا الرجل هرة يؤثر بكثير من الرعاية ، والعطف ، مما كان يزعج رفاقه في الزنزانة ، ويثير سخطهم ، وضجرهم . وفي يوم من الايام غضب احدهم ، فركل الهرة بقوة ، وكسر قائمة امامية من قوائمها . وما ان رأى سليمان هرته في هذه الحال حتى غلبه البكاء ، والنحيب ، وهو الذي ذبح اسرة شقيقته عن آخرها ، فلم تند من عينيه دمعة ، ولم يرف جفن . وكان في نحيبه يردد شكواه قائلا : « يا الهي ، كيف يمكن للمرء ان يبلغ هذه القسوة، وهذه الضراوة ..؟. انه وحش آدمي الذي كسر ساق هرتي» ..! ثم انزوى لا يختلط برفاقه ، ولا يوجه اليهم الحديث ، ويمعن في النظر في هرته ، والحسرة تملأ قلبه المفطور »..!

وحدثني ناظم ان سليمان هذا كان يخاطبه قائلا : « وهكذا ترى يا سيد ناظم ان هناك بشرا لا قلوب لهم ، يحسون بها . ولا يشفقون ، فيكون منهم هذاالجرم البشع ، وهذه الاساءة المنكرة ..! »

وعلق ناظم على هذا فقال لي : « ان الانسان لغز ، لا سبيل الى فهم طبيعة سلوكه ، وتناقض هذا السلوك ، بما يستعصي على كل دراسة ، وتحليل . والا ما تأويل ان يذبح هذا الرجل أهله . فلا يضيره ذلك في شيء ، ولا يحرك في داخله اي شعور بالحرج ، والاثم .. ثم يذرف الدمع مدرارا لما اصاب هرته من طفيف الجرح والاذى »؟.

بعض الانفراج

كنت أرقب في صبر نافد نهاية شتاء عام ١٩٣٤ ، ومن شأن الناس ان يتعودوا مع الايام ما يصيبهم من بأساء ، ويألفوها . ذلك انني كنت أجد في ما انا فيه كل معاني المأساة ، ثم استحال ذلك الى ما يشبه الاستكانة ، والرضوخ ، والى فتور في النفس، واقلاع عن التململ ، والثورة في المشاعر .

وعقدت العزم على ان اصلح من امور هذه الحياة التي كنت احيا في ضيق ، وتذمر ، يقربان من اليأس ، واحسست بالحاجة الى الاستزادة من المعرفة ، والثقافة .

وفي باديء الامر انصرف اهتمامي الى البحث عن امكان الحصول على بعض الغذاء . وقد أفادني الحارس المناوب ان مقربة من مدخل السجن دكانا يبيع المواد الغذائية ، وملحمة ، وبائع خضار ، وفاكهة . وطلب الي أن ادون له حاجتي من هذا كله في وريقة ، ولم يلبث ان جاءني بما طلبت اليه .

وبعثت بعد ذلك برسالة الى مدير السجن ، اسأله ما اذا كان يسمح لي بأن ابعث برسائل الى والدتي ، والى شقيقي فؤاد،

المقيم في أثينا آنذاك . وكتبت الرسائل ، واخذت انتظر الاذن ، الذي لم يلبث احد الحراس ان حمله الي ، فسلمته الرسائل، واغلفتها مفتوحة .

وأنبأني الحارس ان مدير السجن امر بتسهيل امري ، والاستجابة الى حاجاتي وتلبية مطالبي . وفرحت بذلك كله ، وارتحت اليه ، وزدت فسألت الحارس ما اذا كان يتيسر لي ان استحم ، وان اذهب الى المزين ، او ان يأتي الي ..!

حلو الايام ومرها

مر علي من ايام السجن ما يزيد عن الشهر ، نحل فيها جسمي كثيرا ، وبدا لي انني قد قطعت مراحل من العمر . لم اتمكن من معرفة اي شيء عن موعد محاكمتي ، ومع يقيني المسبق ، بما سوف يكون عليه حكم محكمة الجنايات ، فقد استبقيت بعض الامل ، والرجاء في طوايا النفس .

كنت قد تلقيت ردا من والدتي على رسالتي اليها ، تحاول فيه ان تشد من عزيمتي ، وتستثير الشجاعة في ، مع ايماني بأنها أحوج ما تكون الى العزاء ، والشجاعة ، مما كان يشق علي ، ويحز في نفسي ، ويعمل في خاطري ، ووجداني ، وكان في رسالة والدتي ما يشف عن تماسك ، وصبر، حتى انها لم تكن تتحدث عن نفسها ، بل عن انباء الاسرة ، والبلاد ، وتنقل الي تحية الاهل، والاصدقاء . كانت والدتي غمرها الله برحمته امرأة فذة في طهرها، وسماحها . وكانت حديث الناس ، الذين اذا ما رووا عن «الست فخرية » فانما كانوا يروون حبها للخير ، وفعلها للخير ، وايمانها بالمحبة ، وفعالها في المحبة .

وهي التي أهدت الي يوما مؤلفات « مكسيم غوركي » مكافأة لي بعد ان حزت الشهادة المتوسطة .

وكانت قد تابعت دراستها في القدس ، بمدرسة الراهبات، حتى اتقنت العبرية ، والفرنسية ، والتركية .

اما شقيقي فؤاد ، فقد بعث الي ببطاقة بريدية ردا على رسالتي ، فيها رسم لجبل « بارنتيوس » بجوار اثينا .

وقد وافت اخي المنية في عام ١٩٣٧ ، وكانت ولادته في عام ١٩١٢ ، وكان يكبرني باربع سنوات . وكان فنانا ، وشاعرا. ومن بين آثاره رسومه بالحبر الصيني .

وكان لوفاته وقع صاعق على والدتي ، ولم تتحمل وطأة المصاب ، فتوفيت بعد وفاة فؤاد بستة شهور .

وكيل النيابة الانسان

في الصباح المبكر من احد الايام ، فتح احد الحراس باب زنزانتي المعدني ، وخاطبني بصوت جهوري ، فأخبرني ان وكيل النيابة ، الذي يقوم بجولة تفتيش يريد ان يقابلني في مكتب مدير السجن .

وتوجهت بصحبة الحارس ، فمررت المر الاول في الطابق السفلي ، ثم بستة ابواب كبيرة من القضبان الحديدية . وحين مررت بقرب المر كانوا ينظرون الي في فضول ، كما لو انهم كانوا يرددون في دخيلة نفوسهم : « كيف يمكن ان يكون هذا الفتى الرقيق الجسم ، خطرا كما قيل لنا ، وانه كان يدبر لانقلاب على الدولة .. انهم دون ريب يسخرون منا ، ويتندرون ..! ». وكان بعض هؤلاء السجناء ينظرون الي نظرة عطف ، واشفاق .

في المر نفسه كانت زنزانات المعتقلين السياسيين . وبين هؤلاء صافح بصري ناظم حكمت وسط رفاقه ، وكان قد اطلق لحيته ، وجلس جلسة الواثق بنفسه ، الحازم لامره ، المؤمن بموقعه ، وبقضيته ، ورسالته . وتبينت في نظرته الي معاني

الصداقة ، والود ، والاخوة ، وانا احاول ان اصرف بصري عنه ، وعن رفاقه .

كنت قد تعرفت بوكيل النيابة في اثناء اقامتي أسبوعا في مقر الامن العام بمدينة بورصة ، كان في الثلاثين من العمر ، نقي الوجه ، والملامح ، وردي الخدين ، عسلي العينين ، اللتين كانتا تعكسان الصدق والاخلاص ، والادراك ، والفطنة بالامور . وكانت مهمته دراسة ملف قضيتي مع القاضي.

ويلوح لي انه لم يكن يؤمن بما وجهته الي سلطة المباحث، وقاضي التحقيق من تهم . غير ان الملابسات التي كانت تحيط بالسياسة الداخلية آنذاك لم تكن تسمح بأية بادرة انسانية مهما كان شأنها . وعلى الاخص اذا كانت التهمة ، تهمة بالشيوعية ، وهي أم الكبائر ...!

لقد كان لفظ الشيوعية مما كان يقتضي تجنبه ، والابتعاد عنه ابتعاد المرء عن الطاعون . ولم يكن أي انسان ليجرؤ على العناية بمن يشتبه بأنه مصاب بهذا الوباء المخيف . وما أحسب الا ان هذه الحال ما زالت قائمة حتى يومنا هذا .

لذلك ، ولشيوع هذا الجو من الرهبة ، والارهاب ، وجدت سلوك وكيل النيابة سلوكا فيه جرأة ، واقدام ، سلوكا فيه نزعة من الانسانية ، والتحضر ، وحين رويت ذلك لناظم حكمت بعد حين ، أيد ما ذهبت اليه ، لان السيد « فريد » قد أبدى الكرم نفسه حيال ناظم حكمت . وبفضل سلوكه هذا . أتيح لناظم ورفاقه ان يستأثروا بالجناح الغربي من الطابق الثالث من مبنى السجن . وفي مكتب مدير السجن التقيت وكيل النيابة، فصافحني وسألني عن حالي ، وحدثني بأن قضيتي كانت على وشك ان تثار، وان علي ان اختار محاميا قديرا ، يدافع عني . ولما سألني اذا كنت قد اخترت محاميا عني ، أجبته بعد دهشة مني ، وشرود ذهن : « أرى ان ذلك لن يكون ذا جدوى ، ويقيني انني لم اقترف من الذنب ما يستدعي اللجوء الى محام . واني لواثق كل الثقة بعدالة القضاة ».

ونظر الي الرجل في كثير من الاشفاق ، واخذ يختار الكلمات التي من شأنها ان تقنعني ، واجاب : « لست اقصد الى أن أشرح لك ما في دهاليز الاجراءات القضائية ، فقد انبئت بان فيك ذكاء، وفطنة . ولديك من الفهم ، والتجربة ما يجعلك في غنى عن ذلك. غير ان ولي امرك ، وممثلي بلدك يلحون على ان يكون لك محام يدافع عنك . أنه امر شكلي محض ، فانظر في أمرك هذا ، واني لارجئك ، ولا استعجلك الجواب . ومضى ، فسألني عن حاجتي، وطلب الي ان ألجأ اليه في كل ما يعوزني ، وقال : ذلك هو واجبي ، ولا فضل لي فيه.»

وترددت بعض الشيء ، ثم دفعني ما لمست من صدقه ، ومروءته ، الى ان اطلب اليه ان يبعث الي ببعض الكتب ، وسواها مما استعين به على سجني . ووعدني الرجل خيرا ، واخبرني ان ولي امري قد أودع مبلغا من المال لدى ادارة السجن ، استطيع ان انفق منه ما يلزمني من حاجات ، وسلمني وصلا مكتوبا بالمال المودع .

واضاف : احسب انك في أمس الحاجة الى الشمس ، والهواء الطلق ، ولسوف يذهبون بك الى الحديقة حين يكون الجو صحوا . وقد حدثت مدير السجن في ذلك ، فوافقني ، عليه .».

انني ما زلت على مر السنين اذكر هذا الرجل الجريء ، المرهف الحس ، الكبير القلب ، الذي كان موضع تقدير ، وعرفان سجناء الحق العام ، والسجناء السياسيين على السواء . وبعد شهور ، علمنا لسوء الطالع انه نقل ـ مع الترقية ـ الى نيابة عامة في اقاصي الاناضول الشرقية ، وكان مقره في بلد ناء لا يجد المرء اسما له على الخارطة ، وكان هذا النقل ـ مع الترقية ـ بمثابة نفي ، واقصاء .

وبعد حين اعلمنا صديق من كلية الحقوق ان وكيل النيابة الصديق كان يحفظ عن ظهر القلب اكثر شعر ناظم حكمت . وذكرت بهذه المناسبة قول الشاعر :

يقضى على المرء في أيام محنته بان يرى حسنا ما ليس بالحسن

رسائل الاهل .. وناظم الطفل

في اواسط شهر شباط (فبراير) ، بدأت قسوة الشتاء تخف شيئا فشيئا . وكنت اخرج في ايام الصحو الى باحة السجن ، وبصحبتي الحارس المكلف بي ، وارقب السحب العابرة فضية ، ندية . وكان بصري يمتد الى الطرق المتعرجة التي تمتد الى الجبال المكسوة بالخضرة ، فأشعر بكثير من الراحة والسكينة، والرغبة في الحرية ، والمتعة والامان .

وفي الثامن عشر من شباط تلقيت من والدتي الحنون رزمة تحتوي بعض حلويات بيروت التي كنت احب ، واستسيغ، وكنزة من الصوف حبكتها بيديها ، وبعض الملابس . كان ذلك في ذكرى يوم مولدي ، الذي لم تنسه والدتي ، وكانت تعد له الايام . وما شعرت الا ودمعي ينهمر دون أن اتمكن من حبسه ، وينسكب على هدايا امي الغالية . وبعد ظهر اليوم نفسه تلقيت رزمة من أخي فؤاد ، فيها رسوم له مع بعض اصدقائه في اليونان ، وكتابا حول الرسوم اليونانية . فزادت فرحتي في ذلك اليوم وتضاعفت. وفي الرابع والعشرين من الشهر ، تلقيت استدعاء من النائب العام، يفيد بان تاريخ محاكمتي قد تحدد بعد اسبوع . ولم آبه لذلك ، فقد كنت اعرف مضمون الحكم قبل ان يلفظه الحاكم ، وكنت قد الفت كل مفاجأة ، وكل طاريء ، فلا يحدثا في أي أثر ، ولا يتركا أي انفعال .

وشرعت في وضع برنامج لمطالعتي ، ودراستي الفنية .

كانت ادارة السجن تخرج المعتقلين للنزهة ، والرياضة في باحة السجن ، كلما صحا الجو ، وتألقت الشمس . وكنت أخرج مع حارسي مع سائر السجناء ، دون ان يتاح لي الاختلاط بهم ، والمشاركة في لعبهم ، ورياضتهم ، او الحديث اليهم .

ومع ذلك ، فقد تدبرت الاتصال ببعض السجناء من جميع الفئات ، والطبقات ، ومن جميع الاعمار . وكان فريق ناظم حكمت ، ورفاقه ، يشاركون في ذلك كله ، منفردين ، بعيدين عن

الاخرين . وكان ناظم يشاركهم اللعب بالكرة سواء كرة القدم ام الكرة الطائرة ، وسواهما . وكان الفرح والحبور يغمران الجميع. والحيوية تتجلى في جميع حركاتهم ، حتى لتحسبهم تلامذة صغارا ، خرجوا للهو والعبث في باحة مدرسة . وكان ناظم يرمقهم بعين حارسة ، وبعطف كبير ، ثم يحدثهم في ما لم اكن اعرف من حديث . فاذا فرغ من ذلك ، لجأ الى حائط ، وأخذ يملي شعره . وآراءه على الشاعر الفتى « نائل » ، وهو شاعر ناشيء من مدينة « قونية » ،وكان قد درس سنوات في معهد « ماركس وانجلز » بموسكو ، وكان شديد التعلق والاعجاب بناظم حكمت ، وبشعره الوطني والانساني.

كنت آنذاك احمل صليبي لوحدي ، واكتفي بمطالعة الصحف، والمجلات الفرنسية بانتظام ، بعد ان كانت توضع على حافةنافذتي، ثم اعكف على كتبي الدراسية ، وارسم ما يخطر لي من لوحات، ومنها جدران السجن ، ورجال الحرس ، والسنديانة العتيقة، وبعض السجناء النائين عني .

المحاكمة المهزلة ..

حدد اليوم الثالث من اذار (مارس) عام ١٩٣٤ ، موعدا لبدء النظر في قضيتي ، وكنت قد صحوت مبكرا استعدادا لذلك، وما ان صحبني الحارس لامثل امام النائب العام ، ودخلت القاعة، حتى هرع الي رئيس فرقة الحرس المكلف ، ليضع القيود في يدي. وفي اللحظة نفسها دخل رئيس الحرس الاعلى . وما ان شاهد عنف رئيس فرقة الحرس ، وفظاظته حتى انسحب من القاعة ، ثم عاد اليها بعد دقائق محتقن الوجه ، والاستياء ظاهر في ملامحه ، وطلب الى رئيس الحرس ان يلحق به .

وعاد الاثنان بعد لحظات ، واقترب مني رئيس فرقةالحرس،

وفي زفق ولين ، انتزع القيد من يدي ، وهو يقول : « يبدو ان هناك تعليمات من النائب العام..! »

ولم أحر جوابا ، وما كنت لاحفل بالجواب ، ولا بأن امثل امام القضاء مقيد اليدين ام طليق اليدين ، ولا بأن يكون مألوف العادة ان يمثل المتهم مقيدا ام طليقا . كل ذلك لم يكن ليعنيني في شيء.

كان في قاعة المحكمة تسعة متهمين آخرين ، اقتيدوا معي الى قصر العدل ، قبل ان يصحو الناس من سباتهم ، وقبل ان تدب الحركة الدائبة في أرجاء المدينة .

في محكمة بورصة الجنائية سوف تجري محاكمتي ، وفي هذه القاعة التي لفظت فيها مئات الاحكام الظالمة ، التي سوف يضاف اليها الحكم الذي سوف يصدر علي . وكان يخيل الي ان جدران هذه القاعة قد غطاها السواد ، سواد الظلم ، والزور، والبهتان .

وجرت اجراءات محاكمتي رتيبة ، تافهة مثل سائر الاجراءات ولم تكن سوى مهزلة ، لو شئت ان اصورها لملأت الصفحات الكثيرة ، الكثيرة .

اما القاضي فقد كان له وجه بشع بالغ البشاعة ، وكانت أسنانه بارزة ، بروز انياب ذئب ضار ، يوشك على الانقضاض، والافتراس . وكانت نظراته العدوانية ، الحاقدة تثير التقزز ، والنفور . واما المستشاران ، فقد كان شأنهما شأن القاضي في الملامح الدميمة ، والمظهر المنفر ، البغيض . ولم يكن النائب العام احسن مظهرا من القاضي والمستشارين : في اذنين كشراعي مركب عتيق ، وفي بطن منتفخ بارز ، لكثرة ما يدخله من الشراب ، وفي عينين صفراوين تشبهان عيني ثعبان ، وفي نظرات لا اثر فيهما للانسانية والرأفة .

وبدأت محاكمتي بلائحة اتهام رديئة الصياغة ، والسرد، تتخللها عبارات معترضة لا حصر لها ، وتفاصيل لا سبيل الى فهمها . وانتهت اللائحة بالتأكيد انني ثوري خطر ، واني حاولت

القيام بانقلاب على الدولة ، لتغيير نظام الحكم ، وبأنني ... مما تنطبق عليه المادة كذا ، والفقرة كذا من القانون ..!

وكان القاضي يتثاءب عند تلاوة اللائحة ، ويغالب النعاس، فيغلبه ، ويغط في الرقاد . وجاءوا بالشهود ، وكانوا عددا كبيرا ممن زعموا انهم من طلاب كلية الاداب ، وكلية الحقوق ، ولم يكن نظري قد وقع على أحد منهم في السنتين الاولى ، والثانية ، لانني كنت اعرف جميع طلاب الجامعة لان عددهم في ذلك العهد كان محدودا .

وقد آلمني غاية الالم ان اشاهد هذا العدد من الفتيان لا يتورع عن التقدم لخدمة قضاء ظالم أخرق ، في محكمة من محاكم التفتيش .

وما أن شرع كاتب المحكمة في تلاوة شهادات اساتذتي بدت ملامح الضيق ، والضجر على ملامح أعضاء المحكمة ، لان الشهادات كانت في مصلحتي ، ولانها كانت تثبت بانني كنت طالبا مستقيم السلوك ، حسن السيرة ، منصرفا في جد ، ونشاط الى دراستي، متميز بين رفاقي ، وبأنني نجحت في ان اتقن اللغة التركية ، اتقانا عجز عنه كثيرون من المثقفين الاتراك ، وبأن آمال وطني لبنان معقودة بي ، وبأمثالي من الشبان .. وشهد اساتذتي بانهم لم يسمعوا مني ما يشير الى اهتمامي بالسياسة وبشؤونها ، وبأنني لم اكن اجري حوارا او نقاشا في القضايا السياسية ، او اشارك فيهما .

ولما فرغ الكاتب من قراءة لائحة الاتهام ، والشهادات ، علق النائب العام قائلا : « انها ثرثرة معلمين ، وما كنا ننتظر منهم سوى هذه الثرثرة » . والحقيقة ان الاساتذة الذين ادلوا بشهاداتهم هذه كانوا من كبار رجال العلم ، والادب ، والفضل ، وكانوا اساتذة لهم الشهرة الواسعة العريضة في الوطن، والخارج .

وانتهت الجلسة ، وسألني القاضي ما اذا كان لدي شهود آخرون ، فأجبت بان ليس لدي،وبأنني اسلم امري لعدالة المحكمة

... فرمقني بنظرة هزء ، وسخرية ، وبذلك اسدل الستار على الفصل الاول من هذه المهزلة .

بين جماعة ناظم

بعد ايام خمسة من جلسة محاكمتي الاولى ، حملت في صبيحة احد الايام الى مكتب مدير السجن . فلما دخلت عليه كان متجهم الوجه ، يبدو عليه بعض الضيق ، والحرج . وبادرني قائلا : « اجلس ايها الفتى ». كيف حالك ، وكيف كانت جلسة محاكمتك ؟» ...

كان واضحا ان الرجل لم يستدعني الى مكتبه ، ليسألني عن مجرى المحاكمة .. ولكي لا اخيب ظنه أجبته في هدوء ، باني كبير الرجاء ، في ما سوف تؤول اليه .

ودخل المدير في لب الموضوع ، وقال : لقد تلقيت تعليمات من النائب العام بنقلك ، وضمك الى مجموعة السجناء السياسيين في الطابق الثالث . ولما كنت لا اتوقع امرا كهذا ، فقد اعتراني شيء من الارتباك، وقلت له: «ولكن المحاكمة لم تنته يا سيدي»! فأجاب : « أعلم ذلك ايهاالفتى ، ولكنني لا استطيع ان اخالف للنائب العام امرا .. وأحسب انك سوف تكون احسن حالا في مقرك الجديد ، حيث الهواء النقي ، والضوء الغامر ». وأجبته : « اشكرك ، ولكن المشكلة ليست في هذا المجال ».

وقاطعني ، فأضاف في تجهم ، وضيق : « انني أعلم ما يجول في دخيلة نفسك ، ولكنها ارادة المسؤولين ، ولا أملك في هذا الامر شيئا .».

كان الهدف من نقلي ، وضمي الى مجموعة ناظم حكمت بمثابة فخ نصبه النائب العام في بورصة ، مما اكد ظني ، وحدسي ، وما توقعت من ان وكيل النيابة سوف يزعم في جلسة محاكمتي

الثانية بانني قد طلبت نقلي ، وسعيت الى الالتحاق بمجموعة ناظم حكمت .. وبأن في ذلك اعترافا صريحا مني ، بأنني في الواقع واحد من هذه المجموعة . وبما انني سوف اكون عاجزا عن الرد ، والدفاع عن نفسي برد التهمة ، فلا بد ان يكون النصر حليف النائب العام ، وان يعتبر اتهامه لي حقا ، وعدلا لا مراء فيهما .

لم يكن لي حيال ذلك حيلة ، ولا وسيلة ، وتساءلت ما اذا كانت هناك حاجة الى هذه المحاكمة المهزلة ، وهذه المسرحية المدروسة ، المدبرة . ولجأت حيال ذلك الى الصبر ، والى أن استهين بذلك كله ، ولا احتفل به ادنى الاحتفال ، وقلت لمدير السجن : « اخشى يا سيدي ان يكون ثمن الهواء النقي ، والضوء الغامر ، ثمنا باهظا ، فادحا .. فهل علي ان امتثل لقرار النائب العام » ؟.. فأجابني : «نعم، وبأسف شديد ...» وكان ختام اللقاء ، والحوار .



الفصل الثاني

في الطابق الثالث

كان الجناح الغربي من الطابق الثالث ، والاخير من مبنى السجن ، مخصصا لمجموعة ناظم حكمت ، وهم ثلاثون من السجناء السياسيين ، مع ان هذا الجزء من المبنى يستوعب عادة حوالي مائتي سجين . غير ان النظم الجزائية كانت تحرم اقامة سجناء الحق العام ، والسجناء السياسيين في مكان واحد . وفي ذلك ما اكره الادارة على تخصيص هذا الجناح للسجناء السياسيين، وعزلهم عن سائر السجناء.

وبعد ان الحقت بمجموعة ناظم حكمت اكتمل عددنا خمسة وثلاثين سجينا سياسيا . وكان في كل جانب من الممر ثلاث قاعات كبيرة ، وحجرتان اصغر مساحة وحجما . وكان في كل قاعة ما يشبه الارضية الخشبية المرتفعة ، وضعت فوقها اسرة السجناء القابلة للانطواء ، لتصبح في النهار بمثابة مقاعد .

وكان هناك مغسل كبير فوقه ست حنفيات للماء الحار، الاتي من خزانات ضخمة وضعت فوق نار دائمة الاشتعال ، مما يسر للسجناء الطهي ، وتحضير الشاي . وقد بدا لي هذا الجانب من السجن كأنه دارة فخمة ، تتوفر فيها اسباب الراحة، والدفء .

كان ذلك في الاسبوع الاول من شهر اذار (مارس) عام

١٩٣٤ . وفي الساعة الخامسة ، موعد اجتماع الرفاق في القاعة التي كان ناظم حكمت يقيم فيها . وهناك كنت تجد الشاعر الفتى نائل ، ومعلم الخراطة احمد ، والبلغاري غوريتش ، وعلي غالب، وهو من ديار بكر الشرقية .

وكان نائل اقرب الرفاق الى ناظم حكمت ، واكثرهم حظوة لديه . فقد كان شاعرا ، وكان قد نشر في استنبول مجموعة قصائد ، فيها الكثير من الحرارة ، والاخلاص ، ورهافة الشعور، والعاطفة . وكان نائل في الخامسة والعشرين من عمره ، متوسط القامة ، داكن السمرة ، عصبي الخطى . وكان بعد ناظم اكثر افراد المجموعة علما ، فقد كان خريج كلية « قونية » ، وطالبا قديما من طلاب معهد « ماركس-انجلز » في موسكو ، الا ان ثقافته العامة كانت محدودة .

كان ناظم شديد العطف والحب عليه ، لما كان بينهما من الشبه في المظهر ، حتى لتحسبهما شقيقين ، وفي الافكار والميول . أضف الى ذلك ، ان نائل كان قد اصيب قبل عودته من موسكو بسنوات ، بمرض السل ، ونزل فيضيافة ناظم في «ارينكوي» من ضواحي استنبول ، التي اشتهرت بجوها الجاف النقي، حيث كان موضع عناية « بيرايي» زوجة ناظم ، ورعايتها البالغة ، واكثر ما كان يخشاه ناظم ما كان يلوح من احتمال تعرض نائل لانهيار صحي يؤدي به الى ان ينفث الدم .

كنا نستيقظ مبكرين في الصباح . وكانت قد خصصت لي حجرة تقع في الجزء الجنوبي ، فيها نافذتان واسعتان تضيئان، عبر القضبان ارجاء الحجرة ، وتجعلاني اطل منهما على منظر التلال التي تحيط بالمدينة ، وهو منظر ساحر ، أخاذ .

وكان يساعدني في ترتيب وتنظيف حجرتي ، علي غالب ، وهو من أصل سوري ، وغوريتش البلغاري ، ويسهلان علي المشقة والعناء.

كانت حياة ناظم ورفاقه حياة مجموعة ، وكانت اكثر النفقات مؤمنة من حقوق المؤلف التي كان يتقاضاها ناظم ، ومما كان يبعث

به اصدقاؤه الشخصيين . ولم تكن هناك موارد اخرى تسد حاجات المجموعة . وقد رفض ناظم رفضا قاطعا ان اسهم في النفقات ، فاقتصر ما انفقه على تلبية حاجاتي الشخصية دون سواها .

ومما يلفت المرء ان المجموعة كانت دقيقة التنظيم لشؤونها. فقد عهد الى ثلاثة رفاق بالاهتمام بتوفير المواد الغذائية ، وبشؤون المطبخ ، والطهي . وعهد الى ثلاثة اخرين بتنظيف الصحاف ، بعد الطعام ، وبالعناية بتنظيف القاعات ، والحجرات ، وترتيب ما فيها . على ان يتناوب كل يوم ثلاثة اخرون . وكان طعامنا اليومي رتيبا ، يتألف من الاصناف نفسها : الشاي ، وبعض ثمارالزيتون عند الصباح، والفاصوليا البيضاء عامة ، والعدس ، والبطاطس في بعض الاحيان ، عند الظهر . فاذا ما توفر لنا بعض المال الفائض اضيف الارز الى (لائحة) الطعام . وفي المساء كنا نتناول حساء البصل او الخضار ، او الطحين . وفي بعض الاحيان كان لحام السجن يتكرم علينا ببعض العظام المكسوة لحما، فنضعها مع الماء فوق النار ، ونسعد بمرق اللحم الذي كانت نفوسنا تتوق اليه ، وتشتهيه . اما الفاكهة فقد كانت بعيدة عن متناولنا، وكانت رفاها لا نطمع فيه ، ولا طاقة لنا على ان نشتهيه .

وكانت المشكلة الاساسية توفير السجائر للمدخنين من الرفاق وكانوا خمسة عشر . لذلك درج ناظم على ان يبتاع كل يوم أربع علب منها ، ويوزع خمس سجائر على كلّ مدخن ، فيقسمها هذا قسمين ليكون له منها عشر سجائر .

وكلما مال الجو الى الصحو ، وبدت أشعة الشمس ، كنا نخرج الى الباحة ، فيمارس الرفاق الالعاب الرياضية ، من كرة قدم ، وكرة طائرة . وكان كل واحد فيهم يحافظ على أهدأ ما يكون المزاج ، واكثره دعة ، ومرحا ، خشية ان يسيء الى الاخرين، ويعكر عليهم صفو ما كانوا ينصرفون اليه من لهو ، وعبث . ذلك لان اكثرهم كانوا ارباب عائلات ، انقطعت مواردها وانقطعت سبل الحياة امامها ، مما كان مصدر حزن ، واسى دفينين في اعماق

السجناء الرفاق . كان ناظم يدخن الغليون ، وكان يعبئه بالتبغ الذي يهديه اليه المخرج الاشهر آنذاك « ارطغرل محسن » ، والصحفي المعروف « محمد زكريا » . وفي بعض الاحيان كانت شقيقة ناظم ، سامية ، ووالدته الفنانة الرسامة جليلة خانم ترسلان اليه رزما حافلة بالهدايا ، وفيها كمية كبيرة من السجائر، التي كان يفرح بها المدخنون ، ويحتفلون . لم يكن ناظم يعتبر التدخين نقيصة ، بل كان يجد فيه عونا على كتابة شعره الشجي، الرائع ، الذي ينسل الى القلب والروح ، حاملا دفء العاطفة، وحرارة الوجدان . بعد ان نعود من التريض في باحة السجن ، كان يحين موعد دروس التاريخ ، واللغة التركية . وفي الاسبوع الاول من انضمامي الى المجموعة عهد الي ناظم باعطاء دروس في هاتين المادتين . فرضيت فرحا بذلك ، لعلمي بان مهام ناظم كثيرة، وبان في نهوضي ببعض هذه المهام ما يسعدني كل السعادة. ووجدت كذلك ان في اعطاء الدروس ما يشغلني ، ويجلب لي الكثير من المتعة ، لانني كنت وحيدا ، تراودني الهموم ، ويذهب بي الحنين والشجن كل مذهب . لذلك اقترحت على ناظم ان اعطي دروسا باللغات الالمانية والانكليزية ، والفرنسية كذلك .

كان كل درس يستغرق ساعة من الزمن ، وكنا قد تعودنا ان ننشد بعد كل درس نشيدا ثوريا ، نستمد الحانه من الالحان البلغارية . كما تعودنا ان ينصرف كل رفيق الى ممارسة العاب التسلية التي يفضل ، وكانت متوفرة في القاعة التي تؤوي ناظم حكمت ، ورفاقه الثلاثة . ومن هذه الالعاب ورق اللعب ، وطاولة الزهر ، والداما ، والدومينو ، وسواها . وكان في قاعة ناظم كذلك رف يضم كتبا ، ومجلات متنوعة .

واكثر ما كان يبعث في نفسي البهجة ، والارتياح ، انني قد استطعت ان ارفع بعض الاعباء عن كاظم ، مما اتاح له ان يملي على نائل بعض اشعاره ، وافكاره .

واذا ما حانت الساعة الثالثة من بعد الظهر ، كان ناظم ، ونائل ينصرفان الى القاء دروس على المجموعة في المادية التاريخية، والجدلية (دياليكتيك) ، وفي تاريخ تحرر تركيا ، وواقع الحركات

العمالية في تركيا ، والعالم ، وفي تاريخ الحركة النقابية ، وما الى ذلك .

حوار مع ناظم قبل محاكمتي

في الاسبوع الثالث من شهر اذار (مارس) عام ١٩٣٤ مال الجو الى الصفاء ، ومال الطقس الى الاعتدال ، وشاع بعض الدفء من الشمس الساطعة المتلألئة ، مما اكسبني نشاطا ، وحيوية ساعداني على المضي في ما كنت في سبيله من جهد في تحضير مواد السنة الثانية الدراسية لكلية الاداب ، وفي مشاطرة ناظم اعباءه ، ومشاغله المختلفة .

وحل اليوم الثاني والعشرين من شهر اذار ، موعد الجلسة الثانية من محاكمتي ، المخصصة لسماع اقوال الدفاع ، وكانت الجلسة السابقة لها قد خصصت لسماع الادعاء . وكان وكيل النيابة (المحترم) قد امضى ليله في اعداد لائحة اتهام ، جديرة بمحكمة من محاكم التفتيش . لائحة طلب فيها ان تنزل بي العقوبة القصوى ، التي نص عليها قانون الجزاء ، وهي السجن خمس سنوات . ويقيني انني لو كنت قد تجاوزت الثامنة عشرة من العمر ، لكان طلب ان تنزل بي عقوبة الاعدام ...

وعشية الجلسة جلست وناظم طويلا عند حافة النافذة الكبرى ، المطلة على مرتفع « اولوداغ » المؤدي الى جبل بورصة. ولما طلب ناظم الي ان يلقي نظرة على لائحة دفاعي المكتوبة ، اجبته بأن لا جدوى من ذلك ، وان ذلك لن يبدل من الواقع شيئا . واصر ناظم ، قائلا : « بلى ، بلى يا ولدي .. فاستمع الي ، فان لدي تجارب كافية في هذا المجال. وأفيدك بأن قضاة محكمة الجنايات لو صدف أنهم لم يقرأوا لائحة الدفاع ، فان الامور لن تكون على هذا المنوال في محكمة التمييز، لانها تضم قضاة جديرين بالقضاء» .

واضاف : « لقد كتبت الى محامينا « عرفان امين » كي يعتني

بقضيتك حين تبلغ محكمة التمييز . وهو آت الى بورصة قريبا، ليجتمع بي ، وسيتاح له عند ذاك ان يهيء ملف قضيتك ، انه انسان متميز في الذكاء ، والجرأة، والكرم في النفس والسجية». وظهر علي التردد ، وهممت بالكلام ، فقاطعني قائلا : « اعرف ما يجول في نفسك ، وادركه حق الادراك ، فلا تقلقك لانني سوف أتدبر الامر واياه . واني واثق من انه سوف يرفض اي اجر . ولو عرضنا عليه وألححنا في العرض . وعلى اية حال فانه محام ذائع الصيت ، ولن يعدم وسيلة ليضيف نفقات قضيتك الى ما يتقاضاه من زبائنه الموسرين »... وضحك ناظم وضحكت في ما يشبه الخبث ، والمكر ..!

وتأثرت لموقف ناظم كل التأثر ، الذي يخالطه بعض الحرج، فلم يأبه بذلك ، ومضى يشرح لي الاجراءات . وقال : « ثق يا اخي ان لا شيء في العالم يضاهي جمالا ، ورسوخا الصداقة والاخوة بين الناس. وعلى الاخص الصداقة التي تجمع بين الناس، الذين يجمعهم السير في طريق واحد .. انها أشد آصرة ، واوثق رباطا من اواصر القربى ، والنسب . ذلك ان التفاهم التام بين اصحاب القضية الواحدة ، القضية المشتركة لا يتوفر في كل حال ان ذلك يبدو هدفا عسيرا ، وغاية لا تدرك ، والانسان في واقعه كائن بالغ التعقيد ، فلا سبيل اذن الا في الاتفاق على المبادىء ، والا في افساح المجال رحبا للمحبة ، وللمساواة ».

وساد بنا صمت ، وسهوم ، وتعلق بصرنا بالسماء الجلواء، وجال فكرنا في مستقبل الانسان ، وفي ما يرجى من قيام مجتمع جديد ، قائم على المباديء الانسانية السامية .

وقطع ناظم الصمت المتصل ، وقال : « ان وراء ما يحدوني من العناية بشأنك ايها الاخ الاصغر سببين . ذلك انك تجاوزت حدود سنك في النضوج ، والوعي ، ولست ادري كيف تسنى لك هذا النضوج ، وهذا الوعي . ثم انك منضبط السلوك ، والانضباط ميزة ثمينة ، نادرة . لقد صادفك الكثير من المشقة، والعناء ، ولست اجدك تجأر بالتذمر ، والشكوى . وان في

ثقافتك وسعة اطلاعك ، وغنى معارفك وتنوعها ، ما يثير اعجابي حقا . وما يدفعني الى التساؤل كيف تسنى لك الوقت ، وواتتك الملابسات كي تحصله ، وتفوز به»؟

واجبته : « انك تغالي في تقدير مزاياي ايها المعلم ، فهي مما يتيسر لسائر الناس . اضف الى ذلك ان من شأن الايتام ان يتهيأ لهم النضوج قبل سواهم ، وقبل سن النضوج ، لان تبعاتهم في الحياة تواجههم مبكرة ، ملحة ، قبل ان تواجه اندادهم من الاطفال والفتيان . اما ثقافتي ، وميلي المبكر لاغناء معارفي ، ومداركي، فان الفضل فيهما يعود الى ما تلقيت عن والدتي من توجيه ، انها اول اساتذتي . وهي امرأة فذة في النساء . اما معرفتي باللغات الاجنبية ، فمرده الى ان اكثر اللبنانيين يعرفون اللغة الفرنسية ، ويتحدثون بها ، وبلغة اجنبية اخرى ».

وبادرني ناظم بقوله : « انك كثير التواضع ايها الاخ الاصغر، واني لاقدره .. الا ان جميع ما اوردت من تأويل لا يمنعني من المضي في الاعجاب بمزاياك ، والتقدير لمواهبك ».

واستدرك ناظم فجأة ليقول : « لقد نسيت ان اخبرك بان « بيرايه » آتية يوم الاحد المقبل ». و«بيرايه» هي اول امرأة احبها ناظم ، وتعلق بها أشد التعلق ، وحين عرفتها ساورني شعور بالمودة والقرب ، شدني اليها ، وبادلتني اياه بشعور الاخت حيال شقيقها الاصغر .

كان ناظم متيما بهذه المرأة ، يحن اليها دوما ، ويفكر فيها فلا يفتر تفكيره ، ويلهج بها لسانه بأعذب الكلام ، والشعر . وقد أشار اليها في احدى قصائده بقوله : « انها امرأتي العسلية العينين ، النارية الشعر ، والجدائل ...» .

لقاء المسحوقين بالمعتقلين

منذ يوم السبت كان المعتقلون يتهيأون لاستقبال زائريهم، من الاهل، ومن زوجاتهم، وسائر الاشخاص الاتين من القرى المختلفة. فكان المعتقلون ينصرفون الى الحلاقة، والاغتسال، وتبديل ملابسهم بملابس نظيفة، ويتزينون احسن زينة، كي لا تظهر عليهم دلائل ما تتركه فيهم حياة السجن، من آثار.

ومنذ صباح الاحد كان الزائرون يتجمعون في الساحة الواسعة. تجاه مدخل السجن، والباب الحديدي الذي كان يفصل المعتقلين عن العالم. وكان المشهد يشبه مشهد سوق شعبية في الهواء الطلق. فكنت تجد في الساحة النساء الصبايا، والعجائز، وقد ارتدين ملابس من كل الازياء، والالوان، وتجد الرجال العجائز بشراويلهم الفضفاضة، والشباب بازيائهم المنتقاة التي تزيدهم رونقا، وزهوا. وكان بعض هؤلاء يأتون مبكرين قبل الفجر، ويترقبون ساعة لقائهم بالمعتقلين. ولم يكن الانتظار الطويل ليضير هؤلاء الفلاحين البسطاء، المعسرين، فقد كانوا ألفوا صنوف العذاب، وضروب البؤس، والعناء. كان حال الفقر، والحرمان مما يتقبلون على انه قدرهم، تقبلهم الذل، والمهانة من سادتهم، الذين كانوا يعملون لهم في صبر، وجلد، شأنهم شأن البهائم، والانعام.

كانوا يتقبلون مصيرهم هذا على انه قدر محتوم، وقضاء مكتوب، مرسوم، يأتون الدنيا حفاة، عراة، ويرحلون عنها حفاة، عراة، غير مخلفين الا التعاسة، والقهر. والبؤس الذي لا يضاهيه بؤس. وكانت سلطات الباب العالي تبعث بهؤلاء الى صحارى الحجاز، ومجاهل اليمن، وارض فلسطين ليدافعوا عن الامبراطورية العثمانية، وليحافظوا بالدم المراق على مصالحها. فلا يعود منهم الا من عف الموت عن روحه، ووفر حياته، ويدفن اكثرهم تحت رمال الصحارى، والفيافي تحت كل كوكب.

وكان هؤلاء هم الذين يقع على كاهلهم النصيب الاكبر من الضرائب والرسوم، التي كانوا يدفعونها مكرهين صاغرين، لتزيد

من حرمانهم ، ومن اذلالهم ، على انهم عالة على المجتمع ، وعلى الدولة ، لا نفع فيهم ، ولا غناء.

كان هؤلاء الفلاحين المسحوقين يتوافدون زرافات،ووحدانا، لزيارة المعتقلين من اهلهم ، واصدقائهم ، وابناء عشيرتهم ، حاملين اليهم ما يقيم اودهم من الغذاء ، وما يقيهم وطأة البرد القارس من ملابس ، واغطية ، وما يهون عليهم حرمان السجن من فاكهة وحلويات ، وما الى ذلك .

فرحة ناظم وتوزيع المغانم

لم أشاهد ناظم حكمت اكثر فرحا ، واعظم سرورا منه في اليوم الذي اعلمنا فيه ان «بيرايه» سوف تأتي لزيارته في الاسبوع المقبل .. كان يطير من الفرحة الغامرة، ومن السعادة باللقاءالمأمول. كان باسم الثغر ، ضاحك السن ، منفرج الاسارير ، حتى لتحسبه طفلا يترقب هدايا « بابا نويل » في عيد الميلاد ، او هدايا عيد الفطر ، او الاضحى الموعودة . وحين صادفني صاح : « انها آتية ايها الاخ الاصفر ، آتية دون ريب ، آتية في يوم الاحد من الاسبوع المقبل .. فهل سمعت ما اقول ، هل ادركت ما اقول »!..

.. وجاء يوم الاحد الموعود ، وتدافع الناس كعادتهم في الساعة العاشرة من البوابة المشرعة ، واندفعوا في شوق لا يحد منه الا الانضباط ، والتنظيم ، كأنهم امواج عارمة ، عاتية تهرع الى الشاطىء ، ويسفل بعضها بعضا .

وشرع الحارس المكلف يقرأ من لائحة كان يحملها الاسماء : ناظم حكمت ، غاوريتش البلغاري ، احمد ، معلم خراطة الحديد، محمد ، الغجري ، ديمتري اليوناني ، مصطفى ، من مورانيا ... انكم مدعوون للمثول امام رئيس الحرس في مكتبه ، فاسرعوا. واندفع الرفاق الذين تليت اسماؤهم كالسهام الى مكتب رئيس الحرس .

وعند الظهر رن الجرس رنينه القاسي ، معلنا نهاية موعد الزيارات ، فكان لرنينه وقع المصيبة ، ونذير القلق ، والوحشة اللتان غمرتا القلوب ، والارواح . وتراجعت جميع مظاهر العاطفة المباحة ، وحبست المشاعر الجامحة ، لتعقبها غصة الفراق المحتوم وراء جدران السجن ، الذي غمره الصمت الرهيب ، الذي اناخ على النفوس ، والافئدة جميعا .

وعاد ناظم وصحبه مثقلي الايدي بالرزم، والحقائب، والسلال المليئة بالهدايا ، والمغانم ، التي اودعت حجرة ناظم ، لتوزع على الرفاق ، وليحفظ بعضها لايام الحاجة، والاملاق ...

وعمد ناظم الى فتح الحقائب التي بعث بها اصدقاؤه ، وحملتها « بيرايه » اليه . وكان فيها حقيبة كبيرة فيها جميع انواع الملابس ، من القمصان ، والجوارب الصوفية ، التي ارسلتها والدته ، عساها ان تخفف بعض آلام مرض « عرق النسا » الذي كان يعاني . وازاح ناظم هذه الملابس جانبا ، وقال : « هل بينكم من يريد ان يقاسمني « عرق النسا » وآلامه ؟» ، ورد الرفاق بصوت واحد : « شكرا ايها المعلم ، شكرا .. بل احتفظ بهذه الملابس ، عافاك الله ». وقال ناظم مازحا : « اذن انكم تفتقرون الى الشجاعة ، فلكم ما شئتم ..!...

وبعد ان شاع المرح ، وملأ نفوس الرفاق دعة ، وارتياحا، أخذ ناظم يخرج سائر ما تلقى من هدايا ، فكان بينها : اربعون علبة من السجائر من افضل صنف ، بعث بها « وداد » ، زوج أخت « بيرايه » ، فأحدثت هرجا ، ومرجا بين المدمنين من الرفاق المدخنين . وكان بين الهدايا الشاي ، والبن ، والمربيات، وسائر المآكل ، والاغذية اللذيذة ، التي عهد بها الى لجنة مطبخ السجن . وحظي الرفاق الاخرون بكميات وافرة من المواد الغذائية، كالفاصوليا البيضاء ، والعدس ، والبلغور ، والجبن، وزيت الزيتون، ومجمعا كبيرا من « الحلاوة » ، كان لنا شيئا نادرا في الهدايا . ولاحت من ناظم لفتة ، فشاهدني امعن النظر ، واطيله الى الصحف ، والمجلات ، والكتب ، فأخذ بعضا منها ، وقدمه الي، وهو يقول :

« خذ هذا ، فانه لك ايهاالاخ الاصفر ، فاذا ما وجدت في بعضه فائدة ، ومتعة ، ارجو ان تترجمه كي تتلـــوه على الرفاق . ».
وبالفعل ترجمت بعض القصص ، والروايات التي نشرت في صحف استنبول اليومية الكبرى ، في الاعوام ١٩٣٦ و ١٩٣٧ ، و١٩٣٨ .

قلب ناظم الكبير

اننا في الاسبوع الاول من شهر نيسان (ابريل) من عـام ١٩٣٤ ، وكان اليوم يوم احد ، وكان الصمت قد ساد بعد ان خيم الظلام . وكانت مدينة بورصة التي‌اسرح فيها الطرف دون مـلل، قد اكتست في الربيع وشاحا زاهيا من الخضرة ، توشيه ألوان الزهور ، من فاتح، وداكن ، ووردي، واحمر ، وبنفسجي . انها مدينة فريدة الجمال ، والبهاء ، حتى سميت « بورصة الخضراء » . ولست ادري ما اذا كانت ما تزال على جمالها ، وروعتها . ذلك انني بعد الافراج عني لم اعد لزيارتها ، ولا يعود ذلك الى انـني احفظ عنها ذكريات السجن ، بل لانني اشفق من طبائع اهلها التي تتميز بالعنف ، وشدة الحساسية، وسهولة الاثارة ، حتى ان كل جدل بينهم يتسم ببعض الحدة ، يسفر لا محالة عن جريمـــة قتل .

الا ان كنوزها من الجمال ، والثروة الفنية ، والتاريخيـــة ، كنوز غنية ، وافرة الغنى ، نفيسـة ، بالغة النفاسة .

كان ناظم ، ونائل ، وعلي غالب ، ورفيقان آخران يتحاوران في وسط ممر الاسمنت . اما أنا فقد اتخذت مقعدي المعتـاد بقرب النافذة التي تطل على التلة ، والغابة ، وعلى جزء من الطريق الصاعد الى الجبل . وكان هواء المساء البارد بعض الشيء يتسلل، فأنتعش باستنشاقه ، واحس بالحيوية ، والنشاط ، وانا ساهم الفكر ، مشغول البال في قضايا احاول عبثا ان أجد لها حـلا ، ولم يكن في مثل حالي ما يسهل الحلول .

وسمعت خطى قدمين تدبان من ورائي ، وحين تلفت رأيت ناظم حكمت ، وصحبه السبعة ، الذين تقرر الافراج عنهم يوم غد ، شأنهم شأن سائر افراد المجموعة ، الذين سوف يفرج عنهم تباعا . وكان قانون العفو قد شملهم بمناسبة الذكرى السنوية الثانية للجمهورية التركية (من ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٣٢ حتى ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٣٣). ولسوء الطالع لم يكن ذلك القانون يشملني ، ذلك لان الحكم علي قد صدر في عام ١٩٣٤ اي بعد ابرام القرار ، الذي يشمل القضايا التي حكم فيها قبل ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٣٣. وبادرني ناظم بقوله : « أي بني .. ما شأنك، وماذا يشغلك ، فلا اجدك الا غارقا في الفكر، والتأمل .. انك تعلم ان « بيرايه » آتية غدا في زيارة ملحة .».

لقد نسي المعلم اننا كنا نعلم مسبقا بكل زيارة من زيارات « بيرايه » ، ونسي أنه هو الذي انبأنا بذلك ، مرات عديدة . ولم أشأ ان أسيء اليه ، وتظاهرت بانني أجهل النبأ الذي يسعده ، ويجلب اليه السكون ، والرضى . وسألته : « أحق ما تقول، با لسعادتك ، انني سعيد لسعادتك .».

واجاب : « دعك من هذا .. انك لا تحفل بشأن من شؤوني .. فهل تسخر بي؟ ». قال ذلك وهو يقصد الاثارة ، والهزل ، وكان هذا ديدنه ، حتى اذا ما وفق الى ذلك ضحك ضحكته البريئة ، المدوية .

ولما لجأ علي غالب ، ونائل ، والرفيقان الاخران الى حجرتهم، بقي ناظم الى جانبي ، وسألني : « ما خطبك يا بني ، وما هذا الشحوب الذي يبدو على محياك، وما هذا التعب الذي يتجلى في ملامحك ؟» . وفاجأني سؤاله ، وانكرت الشحوب ، والتعب، واخبرته بانني منذ هنيهة مستغرق في ظلال الليل التي تهبط في رفق ، وتطرد ضوء النهار الذي ولى . وقلت له : « يزعم بعض الناس ان الاضواء تختفي في الليل لتعود اكثر القا وبريقا في الغد » .

واجاب ناظم : « على رسلك يا بني ، فانه يلوح لي انك قد

بدأت في ... وهو وباء شديد العدوى .» . وادركت ما عناه، وآثر ان يلمح اليه تلميحا ، دون التصريح ، وأجبته : « ايها المعلم. انني لن اصبح شاعرا ، ولن يسعفني الهامه . ومن الذي يجرؤ بعد ، ان يدعي الشعر وناظم حكمت في الوجود ؟ » ورمقني ناظم بعينيه الزرقاوين ، ليستطلع الجد من الهزل في كلامي ، فأضفت: « انني جاد ايها المعلم في ما ذهبت اليه . ويقيني ان لن يكون لناظم حكمت من ند ولا من شريك. وارجو ان تصدقني ، لانك ساحر الشعر، الذي لن يضاهيك فيه احد .» .

لقد كنت مخلصا ، صادقا ، في ما حدثته به ، وقد اثبتت الايام اخلاص ، وصدق رأيي، وتبين ان القرن العشرين لم يشهد شاعرا في مثل منزلته العالمية، وفي مثل موهبته ، وسجيته الانسانية المرهفة . لقد ظل المهيمن ، المجلي في ميدانه ، وبقيت قصائده تنساب كالعذب النمير حينا ، وكالسيل العرم حينا ، ومضى شعره في الحب ، والرثاء ، وانشاده الحب ، والصداقة، والوفاء يوغل مع الايام في النفوس ، والارواح ، فيحركها ، ويثير فيها الشجن ، ويبعث فيها المعاني الانسانية النبيلة ، السامية . انه حادي الانسانية ، يمس المشاعر ، والاحاسيس فيفعل فيها ما تفعله موسيقى موزارت ، وشوبرت ، وبتهوفن .

وتناهى الي صوت ناظم ، وهو يوجه الي الحديث : « اسمع يا بني .. ان « بيرايه » قد كتبت الي ان والدتك لو شاءت ان تقصد استنبول ، فسوف تنزل في دارنا، ثم تأتي بصحبة «بيرايه» لزيارتك ، والاطمئنان عليك . فاكتب في ذلك الى والدتك اذا أردت .»

وقد أثرت في بادرة « بيرايه » اجمل الاثر ، واعمقه ، فقد كنت واثقا بان والدتي سوف تسعد بذلك ، وتهنأ به ، وانه يسهل عليها امر السفر ، وعناء الاقامة في استنبول . وما وسعني الا ان شكرت ناظم حكمت على ذلك ، قائلا : « انه كرم سابغ منك ، ومن بيرايه ، واني لاحفظ لكما هذا الصنيع فلا انساه . انني على يقين بان والدتي سوف تسر ، وترتاح لزيارة استنبول اياما ، ثم تنتقل لزيارتي ، فتقر عيناها ، ويهدأ بالها ، وتطمئن الى ما كان

يشغلها من امر صحتي ، وهي التي لم تعرف الطمأنينة في هـذا المجال ، مع كل ما بذلت لها في سبيل ذلك من جهد (*) .

ناظم عاشقا !

وصلت « بيرايه » ظهر الاثنين ، وحين استدعي ناظم للقائها أسرع اليها ، بل كاد يطير فرحا وحبورا . فقد كان يحب زوجته حبا أقرب الى العشق ، واذا ما ذكر اسمها اعتراه الحنين الغامر ، وهزه الهيام من الاعماق .

كنت في ذلك العهد لا ادرك كنه الحب ، ولا أفقه معانيه ، ولم اكن قد عرفت من النساء سوى امي . وكان يبدو لي من المستغرب ان يحب الرجل امرأة الا ان تكون والدته ، او شقيقته، ولم تكن لي في العلاقة بين الجنسين تجربة ، وكنت اميل الى التحفظ والانكماش في هذا الميدان . زد على ذلك انني كنت اجد في حب ناظم لزوجته دافعا جسديا بعض الشيء ، وانه شاء ان يجعل من هذا الحب مثالا للعاطفة المبثوثة ، والتعلق الدائم، المتصل . وكان يلوح لي ان في هذا المثال ، وهذه الصورة كثير ممانسج الوهم ، ورسم الخيال الجامح.

وكان يلوح لي كذلك ان ناظم حكمت كان اسير جمال زوجته الجذاب ، وانوثتها الطاغية . فقد كانت حميراء الشعر ، وردية البشرة ، بارزة تقاطيع الجسم بروزا فيه الاغراء كله .

وقد توالت الاحداث بعد ذلك ، فأيدت رأيي ، وما ذهبت اليه ، وكان طلاق ناظم لزوجته الذي فاجأ الناس ، فأوشكوا

(*) لما وصلت والدتي الى استنبول بالسفينة ، نزلت في ضيافة بيرايه . ولم تلبث اواصر الصداقة حتى اشتدت بينهما . وكانت والدتي تحتفظ بذكرى زيارتها هذه حتى وفاتها في شهر شباط من عام ١٩٣٨ .

ان يميلوا الى تكذيبه . وسوف اعود الى الحديث عنه في مكـان آخر من هذا الكتاب .

محنة الرفيق البلغاري

حين توجه ناظم للقاء زوجته في مكتب مدير السجن ، كنت قد أويت الى حجرتي لاطالع بعض الكتب ، ولم ألبث حتى سمعت وقع قدمين تتجهان الي ، وكان القادم الرفيق البلغاري غاوريتش. ذلك العملاق المتين البنيان ، الواسع المنكبين ، الذي كان يتميز بالوداعة ، ورقة الحاشية ، وبالبراءة الغريبة التي كانت تتجلى في عينيه الزرقاوين ـ الخضراوين . كما يتميز بالابتسامة التـي لا تفارقه ، وبالقلب البكر ، الذي يدفعـه الى حب النـاس ، واسداء الخدمات لهم في غير تصنع ولا كلفة ، مما فتح له القلوب، ومهد له الى كل النفوس سبيلا .

كان قد هجر بلده صوفيا أبان حملة التطهير التي استهدفت الشيوعيين ، ولجأ الى استنبول ، حيث وجد عملا في البنـاء ، وكان من اكثر البنائين خبرة، واتقانا ، واستقر مع زوجته الجميلة، وابنته التي لم تتجاوز الثامنة ربيعا .

لم يكن يشارك في النشاط السياسي للعمال ، ولا يحـاور احدا الا في شؤون مهنته . وكان قصارى سعيه أن يضمن لاسرته الامان ، والعيش الهانيء الرغيد .

غير ان الايام كانت تخبيء له ما كان يتجنب من مكـروه ، ويحاذر من محنة . وفي فجر يوم من الايام ، فاجأه ثلاثة من رجال المباحث ، او ما كان يسمى «الامن الوطني» في داره ، وطلبـوا من العائلة الوادعة ان تصحبهم الى مقر مديرية الامن الوطنـي . ولما لم يسفر التحقيق عن نتيجة ترضي زبانية المباحث ، اطـلق سراح العائلة ، لتعود الى حياتها الوادعة ، الهانئة .

ولم يرض مفوض المباحث بما انتهى اليه التحقيق ، ولـم

يقتنع ، فقد كان عازما على ان ينال من البلغاري الوادع مأربا ، ويلحق به ما رسم من أذى ،ومكروه ، لا يشفع له في ذلك سلوكه الوادع ، المستقيم . وبعد اسبوعين من الزمن ، عاود مفتشو الامن الثلاثة سيرتهم ، فطرقوا باب صاحبنا فاستقبلهم في دهشة وارتياب .

وتلقى مفوض الامن افراد الاسرة بالبشر ، والترحيب .. وسألهم عن حالهم مستفسرا ، شأن الصديق . ثم اقترب من الفتاة الصغيرة ، واخذ يلاطفها ، ويداعبها ، ثم قدم اليها كيسا مليئا بالحلوى « البونبون » ، وسألها عن اسمها ، فقالت بعد ان انست به : « اسمي مارينا » . فهتف المفوض : « يا له من اسم جميل ، محبب .. اذن اخبريني يا صغيرتي ، واني لصديق حميم لوالدك ، بماذا تؤمنين ؟» . واجابت الفتاة في براءة الاطفال ، وسذاجتهم : « انني شيوعية صغيرة يا سيدي .. شيوعية مثل ابي !» . وشرعت الفتاة تنشد نشيد الاممية .

وذهل غاوريتش ، وسقط في يده . فتقدم المفوض اليه ، وصفعه صفعة مؤلمة ، مدوية ، وهو يرغي ، ويزبد ، ويصيح : « ايها الكلب الشيوعي القذر .. لقد سممت حتى بنتك الصغيرة» . وامر رجاله ، فاقتادوا صاحبنا البلغاري الى السجن .

كان صوت غاوريتش متهدجا ، متقطعا ، وهو يروي الي محنته ، وكان الدمع ينهمر ، مدرارا على خديه . وكان اكثر ما يحز في نفسه انه أكره على ان يتخلى عن عائلته وحيدة دون سند ، ولا معين . ومن المستغرب حقا ،ان جميع الذين اعتقلتهم شرطة المباحث ، كانوا يعتبرون من مجموعة ناظم حكمت ، مع انه لم يكن يعنى باعداد التنظيمات ، والمظاهرات ، والحركات السرية ، ولم يكن يعرف اي فرد من المعتقلين السياسيين ، ما عدا الشاعر الناشيء نائل .

كنت اكن للرفيق البلغاري كثير من شعور الاخوة ، والود ، لما بدا لي من مزايا الصدق ، والمروءة ،ومن مظاهر الثقافة الراسخة . وقد فتح لي المغلق من سريرته ، وكاشفني بالدفين من همومه ،

وقال : « سوف اصبح طليقا في القريب ايها الرفيق علي ، ولست أعرف الى اي وجه سوف انطلق ، وما أحسب انني سوف استطيع العمل في استنبول ، فقد شاع نبأ اعتقالي وذاع ، والعودة الى وطني صعبة المنال . ».

فحاولت ان اهدىء من روعه ، واسري عنه بعض همومه، وألفته الى ان خيار الناس ما زالوا في الوجود ، وان طغى الشر، واستفحل بين البشر . وسنحت لي خاطرة دعوته لزيارة لبنان والاستقرار فيه اذا شاء وقلت له : « لماذا لا تذهب يا صديقي الى لبنان ، البلد الجميل ، المضياف ، والحاجة فيه الى امثالك من العمال المهرة متوفرة . ثم ان لي في لبنان اهلا وصحابا ، يسعدهم ان يسدوا اليك العون في العمل ، والاقامة ، ولسوف أزودك برسائل في هذا الشأن الى اعمام لي ، واصدقاء ».

وصمت صاحبي ، وهدأ ما كان يجيش في صدره ، ثم ربت على كتفي في تودد ، ورفق ، وقال : « حسن ايها الرفيق علي.. حسن .. فكيف لم يخطر لي ما دعوتني اليه .. وما الذي يحول دون ان اقصد بلدك الجميل ، المضياف ؟» .

ونـاظم يفكر بلبنـان

عدت الى المطالعة في كتاب قيم ، استهواني .. حين سنحت لي سانحة السعي الى العمل في محترف الاشغال اليدوية في السجن ، الذي حرم على المعتقلين السياسيين ان يدخلوا اليه، ويعملوا فيه .

ودخل علي ناظم فجأة ، وبادرني قائلا : «آمل في ان لا اكون قد ازعجتك ، فهل لي ببعض من وقتك اتحدث اليك فيه ؟» . ونهضت مرحبا به ، مبديا الاهتمام به ، والحفاوة بما سوف يحدثني فيه . واستقر الى جانبي ، فسألته عن بيرايه ، فأجابني، وهو يبتسم : « انها في افضل حال ، وقد سألتني عن امورك ،

واكدت لي ترحيبها بوالدتك اذا ما عزمت على زيارتها في «ايرنكوي» على ان تحل في دارنا . وانها لتدعوك كذلك الى ان تمضي في زيارتنا ما شئت ان تمضي من ايام عطلة الصيف .».

وابتسمت في اسى ، واجبته : « انها لفتة كريمة ، الا ان ما يعنيني اليوم وما يشغلني امر والدتي ، وما قد يسري عنها ، ويخفف من شجنها ، واساها .. اما انا فان امامي اعواما سوداء في سجني .» . ونهرني ناظم ، وقال : « دع التشاؤم يا بني ، فلقد عهدتك جلدا ، شجاعا ، لا تترك لليأس امرة عليك ، ولا القنوط سلطانا .. وعهدي بك انك تشيع الامل ، والطمأنينة في نفوس الرفاق ، فقد لقيت منذ لحظة رفيقنا البلغاري فحدثني في سعادته ، واستبشاره ، بما كان من دعوتك له ، لزيارة لبنان ، والاستقرار فيه ». وحاولت ان انكر ما كان بيني وبين غاوريتش من حديث ، فرماني ناظم بنظرة ماكرة ، وقال : « دعك من هذا يا بني ، فان ما عرضت على البلغاري حسن ، فيه الخير ، والنفع له ، وفيه الاصلاح لما فسد من امر مستقبله ، ومعيشته . ان بيروت مقر مثالي لكل انسان ، وقد يتاح لنا ان نقصد اليها لقضاء اجازتنا ، واني لعظيم الرغبة في ذلك ».

واجبته في حماسة ، واندفاع : «صدقت ايها المعلم .. ان لبنان بلد مضياف ، رحب في ضيافته ، سمح في نفوس اهله ، في لباقتهم ، وذكائهم .. ان هواءه عليل ، وظله وارف ظليل .. سماؤه صافية جلواء ، وجباله سامقة ، شماء .. و ...»

وقاطعني ناظم قائلا : « رويدك ايها الرفيق الصغير .. انني أعلم ان بلادك جميلة ، ولكن لا تنس استنبول ..!».

ومع نبرة المداعبة هذه ، أدركت أن ناظم حكمت كان يخطط لامر ما ، ويدرك ان وقت اعلانه لم يحن بعد .

هكذا تكلم ناظم

تحدد موعد جلسة محاكمتي في ١٦ نيسان (ابريل) عام ١٩٣٤ ، وهي الجلسة قبل الاخيرة ، وقد خصصت للمرافعة .

كان علي قبل الموعد بيومين ان اهيىء دفاعي في لائحة مكتوبة. والحقيقة انني كنت حائرا في هذا الدفاع ، وفي ما استند اليه من وقائع . فلقد كنت بريئا من اي جرم ، وكان اساتذتي قد شهدوا شهادات كان يجب ان تظهر براءتي . فقد اكدوا انني لم اكن اعنى بالسياسة ، وشؤونها ، ولم اكن اشارك في نقاش اجتماعي ، ولم اكن أزور احدا ، وان دراستي كانت همي الاول، وشغلي الشاغل .

والواقع انني لم اكن املك ما يدعم دفاعي عن نفسي ، وما يمكن ان ارتكز اليه . غير اني كنت آنذاك واعيا مشاعر الاتراك حيال العرب ، وكانت أبعد من ان تكون ودية . الا ان ذلك يجب ان لا يؤثر في سير العدالة ، او يحول مجراها . وهناك عامل آخر قد يكون قد فعل فعله في هذا المجال ، الا وهو تحليلي وتأويلي للتاريخ ، اللذان لم يروقا للاخرين من الناس . والواقع كذلك ان آرائي لم تكن تتفق واراء زملائي في الكلية ، ولا أجد في ذلك مدعاة للادانة في أية حال .

كان لي في الكلية صديق واحد ، هو خالد ، السوري الاصل، ومن اهل دمشق ، وكان يتابع دراسته العليا بالرياضيات في كلية العلوم . وقد عرفته ذكيا حاد الذكاء ، مثقفا واسع الثقافة، رقيقا، وديعا ، غاية في الرقة ، والوداعة . كنا نجتمع بين حين وحين ، لنتحدث عن محنة بلدينا ، الواقعين في الاحتلال ، وتحت ظله البغيض ، وكان شأن خالد مثل شأني في الشعور الوطني المشبوب .

واستعرضت سيرتي طالبا ، فما وقعت فيها على ما يبعث الريبة ، ويستتبع المؤاخذة . ومع ذلك كتبت صفحات في الدفاع عن نفسي ، أصر ناظم على ان يطلع عليها ، فأظهرته على مسودتها،

فقرأها بامعان ، وروية ، ثم بادرني بقولـــه : « اني اوافقك في الرأي ، والمضمون ، الا انني اجد الاسلوب قاسيا بعض القسوة.. وان دفاعا بهذه اللهجة كفيل بان يبقيك طويلا في السجن .. واود يا بني أن أسر اليك بشيء .. ذلك ان الاتيان بعمل يبقيك فـي السجن ليس فيه من الذكاء ، والبطولة شيء ، ولا يفيد بشيء. وعلى المرء ان يكون طليقا كي يتسنى له خدمة من هم في حاجـة اليه .. لذلك ارى ان تعدل من اسلوب الدفاع هذا ، وتلين من لهجتــه .».

واجبته : « ثق ايها المعلم ان ذلك لن يفضي الي أية نتيجة، ولا يجلب اي نفع .. لقد حكم علي قضاة ، ليسوا بقضاة حكمـا مسبقا ، وانك لتعلم ذلك حق العلم ».

وفكر ناظم مليا ، وتصفح وجهي ، ثم قال متعمـدا الرفق، والاناة : « اسمع يا بني : ان الامر جد لا هزل فيــه ، فتنـاسى قضاة بورصة ، الذين أعلم أنهم دون ما يتولون من تبعة،ورسالة. وألفتك كما ألفتك من قبل أن بعد حكمهم حكم التمييز ، وعنده يتقرر مصيرك . ثم لا تنسى أن كلانا في حاجة الى صاحبــه في استنبول . وما احسب انك عازم على البقاء في هذا السجـن ، مؤثر للاقامة بين جدرانه ». واضاف : « سوف يكون لنا مجال واسع للحديث ، بعد ان تكون السلطات قد افرجت في الاسبـوع المقبل عن نفر من الرفاق ، بينهم غاوريتش .»

واردف يقول : « اود أن اطلعك على بعض اللوحات الــتي رسمت. » .. ولم يكن ناظم قد لمح لي عن ميلــه الى الرسم . كنت اعرف ان والدته رسامة ذائعة الصيت ، ولم يبلغني انهــا أورثت ابنها هذه الموهبة ، وهذا الميل .

وعرض علي ناظم بعض لوحاته ، فأعجبت كل الاعجاب بمـا فيها من نقاء في الخطوط ، وصفاء في الالوان . وكان في هــذه اللوحات التي تمثل علي غالب ، ونائل ، وغاوريتش ، وسواهـم من المعاني ، والايحاءات ما ملك علي لبي . وتبينت براعة ناظـم في ابراز الجانب الباطني من الشخصية الانسانية .

وسر ناظم لاعجابي بلوحاته ، ورسومه ، وبدت عليه امارات الرضى ، والارتياح ، كما لم تبد لي من قبل . وبدون كلفة أظهرته على انطباعي وقلت : « ان رسومك تبلغ حد الروعة ، وما كنت اتوقع ما شاهدت فيها من براعة ، واتقان . وانني لو كنت في موقعك من التمكن ، والاجادة لاهملت الادب ، وانصرفت الى الرسم انصرافا كاملا ، وادركت فيه شأوا لا يجارى . » .

ومن خلال نظرة ارتياب ، بادرني بقوله : « اي بني ، ما أحسب الا انك تسخر بي ، وما احسب الا انك تجهل الرسم وفنونه .. ام تراك تخفض من شأن اعمالي الادبية ؟» . ولم أميز الجد من الهزل في حديثه ، فأجبته في هدوء : « لقد أخطأت ايها المعلم مرتين .. ذلك انني لم احدثك عن معرفتي بالفن ، وليس لي فيه نصيب ، ثم انني لست بناقد للفن ، ولا مقيم له . الا انني في حدود ما قرأت عن الرسم ، وما شاهدت من رسوم ، اعتبر لوحاتك مما لا يضاهى ، بما احتوت من معان ، وبما يصدر عن خطوطها من ايحاء . » . واضفت : « واعلم كذلك ان في شعرك لحونا شجية ، واندفاعا عارما فيه دوي حينا ، وفيه همس حينا . انه عالم شاسع الابعاد ، حافل بالمشاعر الانسانية المتباينة .. وفيه المأساة ، والملهاة ، وفيه رجع الحزن والاسى ، ورجع البهجة ، والحبور . فيه العنف المضطرب ، الصاخب ، وفيه في آن السكون ، واللين ، ورفق الانسياب ».

كان ناظم يصغي الي في صمت ، ودهشة ، فخففت من اندفاعي ، وكبت جماح حماستي . ولكنه دعاني ان اواصل الحديث ، ففعلت ، واضفت : « مهما يكن ، فانني ادعوك الى ان تحمل ما افضيت اليك محمل الجد ، وان تقدره بما يليق من تقدير ، فان مازعمت من قيمة الرسم لا مبالغة فيه ، ولا جنوح . ذلك ان الرسام حين يرسم يكون على صلة مباشرة بالناس ، وبالاشياء ، ويكون في قدرته أن يعبر عن مشاعره ، واحاسيسه ، وافكاره ، وتخيلاته اخلص تعبير ، وأصدق تعبير . اما الكلام ، والتعبير بالكتابة ، فانهما يقصران في هذا المضمار ، ولا يبلغان الى الاعراب

عن المشاعر ، والى عكس ما تحمل الى الناس . ان الرسم ينطبع عن طريق العين في قلوب البشر ، أبلغ ما يكون الانطباع ، واكثر ما يكون عمقا ، ورسوخا .».

وما ان انتهيت من حديثي نهض ناظم ، وربت على كتفي، في تودد ، وحدب ، وقال : « ليكن يا بني ، فقد يكون في حديثك الصدق ، والصواب ،ولكنني ما زلت مصمما على ان اوثر الشعر ، واركن اليه ، وارتاح الى ما يوفر لي من فرصة التعبير ، ويمهد لي من سبل الاعراب عما يعتلج في خاطري ، ووجداني ، افضل تمهيد .» . واضاف : « واني لاترك لك ميدان الرسم ، وامجاده مختارا. ».

وابتسم ناظم، وهو يصغي الي ، فقلت : « انهاخسارة للفن الموعود برسام بارع . اما انا فليس لي من الموهبة ما يجعلني اتصدى للرسم ، ولا للشعر ، وليس لدي من المعرفة، والمهارة فيهما ، ما يحدوني الى الابداع فيهما .».

واجاب : « ذلك شأنك يا بني ، غير انني اريد ان ارسمك، فما ترى في ذلك ؟» . واجبته على الفور ، وقد اعترتني الدهشة: « ان في ذلك ما يبعث في الزهو ، والفرحة في آن ، ولكن عملك قد يقتضي معرفة اكيدة ، وقديمة بي .» فرد بقوله : « لا عليك، فذلك شأني، أتدبره بما لدي من اداة الفن ، وبعض الحدس .».

جلسة محاكمة .. وهموم ناظم

وحان موعد جلسة محاكمتي قبل الاخيرة ، فاقتادني الحرس في الصباح الى قاعة المحكمة ، حيث شاهدت الرئيس ، والمستشارين ، والنائب العام وقد تصدروا القاعة . ولم يكن فيها سوى رجال الحرس ، وكاتب الجلسات ، لان الجلسة كانت سرية . واتجهت الي نظرات اعضاء المحكمة التي عهدت ، وفيها القسوة ، التي لا تعرف الرحمة .

وقطع رئيس المحكمة الصمت المرين على القاعة ، وقال بصوته الحاد النبرة ، المعبر عن الحقد الدفين : « اذن، انك مستعد للدفاع عن نفسك ، بعد ان رفضت ان تختار المحكمة محاميا يدافع عنك . » .. وأجبته ، وانا هادىء الجأش : « اجل سيدي الرئيس .. وما هناك حاجة الى ان يدافع عني احد . ولست اجد في ما ألصق بي ما يعتبر جرما ، واني لواثق من ان عدالتكم لن تغفل عن ذلك . ».

ورد القاضي بقوله : « حسن ، حسن ، ليس لدينا وقت نهدره ، فتحدث عن لب الموضوع » . وأدركت من ساعتي ان لا سبيل الى الخلاص ، ولا أمل في عدالة هذه الطغمة من قضاة « محاكم التفتيش » ، فدفعت بلائحة دفاعي المكتوبة الى كاتب المحكمة ، ليحيلها الى الرئيس الذي وجهت كلامي اليه قائلا : « هذا هو دفاعي المكتوب » ، فأجاب : « أفضل هذه الوسيلة ».

ووضعت لائحة دفاعي في ملف ، ثم نهض القاضي ، وتبعه سائر الاعضاء . وبعد التداول ، قررت هيئة المحكمة موعد الجلسة الاخيرة من محاكمتي وكان في ٢٦ من نيسان عام ١٩٣٤ ، وفقا لنص المادة كذا من القانون ..!

ومع الساعات الاولى من النهار كنا في طريق عودتنا الى السجن ، فما وصلته برفقة حراسي، حتى وجدت ناظم حكمت، وسائر الرفاق في انتظاري بصبر يكاد ان ينفد . وتألب الجميع من حولي ، وتعالت أصواتهم المستفسرة في آن واحد : « هيا حدثنا كيف جرت الجلسة ، وما قيل فيها ، ومتى موعد الحكم؟. »

كنت ابتسم ، فلما ضيقوا علي صحت فيهم : « اكاد اختنق من ازدحامكم حولي ، فبماذا احدثكم ؟ لقد كانت الامور على ما يرام . أفلستم تشاهدونني بينكم ، حيا لم يمسسني سوء ، وفي ذلك كل الغنم ، اما الحكم فقد حدد السادس والعشرون من نيسان موعدا له . ».

ورافقني ناظم حتى حجرتي ، وهو يسألني : « هل انت واثق ان لم يفتك شيء .. وهل سجلت لائحة دفاعك في مكتب المحكمة،

قبل ان تسلمها الى الكاتب ؟» . واجبته : « لقد فعلت ايها المعلم .. ولكن كل شيء كان يوحي بأن المحاكمة مسرحية »... وأردف قائلا : « صحيح ، صحيح ، ولكن يجب ان لا يهمل المرء اية تفاصيل . ففي ذلك دوما بعض الفائدة .. ومن الواضح ان هؤلاء السادة القضاة ليسوا سوى دمى متحركة ، وانهم قد تخلوا منذ امد بعيد عن ضمائرهم ، وعن مشاعرهم ، حتى اصبحوا آلات من شأنها ان تحكم على جميع المتهمين الذين يتوالون عليهم ، مجرمين، وابرياء على السواء .». ووافقته على قوله ، واضفت : « ان ما قلته حق ايها المعلم. وذلك ما لمسته بنفسي.. اما الحكم فما أظن الا انه صدر مسبقا ...». وكان ناظم مع ذلك أميل الى التفاؤل، فبادرته بالسؤال : « لا احسب انك تؤمن بالمعجزات ...» . فلم يحر جوابا ، وبدا لي مشغول الفكر ، منصرفا الى التأمل ، مغرقا في الاهتمام بأمر ما يشغله ، ويملك عليه جوانب النفس . كنت قد لمست فيه ذلك منذ ايام ، فنسبته الى مرحلة المخاض لعمل أدبي ما سوف يطلع به على الناس .

وشعرت بالراحة بعد العشاء ، وبزوال التعب ، والارهاق في يومي الحافل الذي امضيت .

ليلة النشيد .. وبحر الذكريات

اجتمعنا في حجرة ناظم حكمت لنتدرب على النشيد الثوري البلغاري الجديد ، التي ترجم كلماته الى التركية شعرا الشاعر الناشيء نائل ، بمساعدة غاوريتش ، وكان نشيدا مؤثرا ، شجيا، فيه الكثير من العاطفة الوطنية المشبوبة ، واني ما زلت أذكره ، واردد مقاطعه ، واتمتم بها على الدوام .

كنت واحدا من الرفاق أقاسمهم الافراح ، والاحزان ، وأشاطرهم ما يشغلهم من أمر ، وما يجول في عقولهم ، وقلوبهم جميعا . وما زالت تتمثل امامي حتى اليوم ملامحهم ، وطبائعهم،

وسلوكهم .. وها اني استعيد في الذاكرة صوفية معلم الخراطة احمد ، ونظرات غاوريتش الساذجة ، التي تشع بألف لـــون ، وحركات نائل العصبية المحببة ، وفرحة طالـب الطـب سامي ، وسواهم . وكلما اغمضت عيني ، بعد اعوام توالت ، تقفز الـى ذهني تفاصيل تلك الليلة الفريدة في السجن ، بل في حصـن « بورصة » .. كان ناظم ينشد بصوت مرن ، وغاوريتش بصوت دافىء ، أجش ، وكنا بمثابة المنشدين المرددين .

ترى ماذا حصل باولئك الصحب ، والرفاق ، الذين غابوا عن عيني وتفرقت بهم السبل ، ما عدا ناظم حكمت ، ونائل، وعلي غالب ، وسامي؟.. لقد تغير وجه العالم منذ سنوات بورصـة ، وتبدلت معالمه ، ومفاهيمه . لم يعد للصداقة ، وللاخوة ما كـان لهما من مكانة بين الناس ، وزال التضامن ، وانتفت الالفة ، وحلت مكانهما الانانية البغيضة ، والميل الى سحق الفقراء ، والمحرومين، والمعذبين في الارض . واصبحنا ، نحن شباب الامس سجناء واقع جديد ، يحيط بنا من كل ناحية اناس فارغي القلوبمن كل عاطفة سامية ، كانت تملأ جوانح الانسان بالامس ، وترفعه الى ارفـع مراتب الكرم والمروءة والسماح.

كان الشباب ، وكنت في ابانه ، وفي غلوائه واثق الخطوة ، ثابت الهمة ، راسخ العزم ، والايمان . اما اليوم فانك تجدنـي قابعا في ركن منعزل ، متفرد ، بعيد عن العالم . أرمق العـالم في حزن ، واشفاق .. وارقب الناس في حركتهم ، وسكونهم ، وقد غدوا عبيدا للشهوات ، وللمطامع الدنيا ، واسرى الغـرائز والنزوات البربرية ، وفرائس للجهالة ، والضلال البعيدين .

.. واني لاذكر في ما اذكر ، اننا في ليلة النشيد ، قرأنـا قصيدة « بحر قزوين » لناظم حكمت وكانت واسعة الانتشـار آنذاك . وتتميز هذه القصيدة بما يتميز به شعر ناظم من نفحـة شجن مؤثرة ، ومن عمق في العاطفة ، والايحاء .

ناظم كاتبا مسرحيـــا

أطلق سراح أربعة عشر من رفاقنا ، وعادوا الى اهلهـم ، ومنازلهم ، وكان غاوريتش واحدا منهم . ومع فوزهم بالحريـة، كان القلق باديا على الكثير منهم . ويلوح لي ان ما يواجههم مـن شؤون كسب العيش ، والعودة الى طبيعة الحياة التي كانوا يحيون كان السبب في قلقهم ، واضطرابهم . ذلك ان الحصول على عمل ، بعد ما الصق بهم من تهمة ، وبعد فترة غير قصيرة من الاعتقـال لم يكن بالسهل ، الميسور .

كان جميع الرفاق من خيرة الرجال ، وأحسنهم سيـرة ، وخلقا . وكان بينهم الخياط ، والحلاق ، ومعلم الحدادة، والنجار. أما النجار واسمه عاكف ، فقد كان هاديء الطبع ، رصين السلوك، دائم التفكير ، والتأمل . وهو من مدينة بورصة ، متزوج ولـه ثلاثة ابناء ، كانوا يأتون ازيارته مع والدتهم في أيام الاحـاد . وكانت زوجته ترعى شؤون مصنعه ، وهو قيد السجن ، وكان شقيقه يلبي مطالب الزبائن في همة ونشاط ، مستفيدا من سمعة أخيه الحسنة في بورصة ، وما له فيها من امتن الصداقات . وفضلا عن ذلك كانت زوجة عاكف تنفق على زوجها ، وتجلب له ولرفاقه ما كانوا في حاجة اليه من غذاء ، وكسوة ، وما الى ذلك، مخففة بذلك بعض العبء عن كاهل ناظم المثقل بالاعباء .

.. كان ناظم قد شرع في تلك الفترة في كتابة الفصـول الاولى من مسرحيته « الانسان المنسي »، التي اخرجها وعرضها المخرج « ارطغرول محسن » في عام ١٩٣٥ . وكان في الوقـت نفسه ينصرف الى موضوع يشبه « القصة العلمية المستقبليـة »، استلهم موضوعها من الفيلم الشهير آنذاك « متروبوليـس » . وتقع احداث القصة في بلد شيد تحت سطح الارض ، لا تصلـه أشعة الشمس ، بل يستضيء بنور الكهرباء ، الذي تستغله شركة زاعمة للناس ، في سبيل استمرار استغلالها ، واحتكارها ، ان الكهرباء هي المصدر الوحيد للانارة ، وان الشمس اسطورة مـن

نسج الخيال ، ومن صنع اوهام اناس سيئي النية ، والقصد ..!.
غير ان نفرا قليلا من الناس المتميزين بالجرأة ، والمبادرة كانوا واثقين من وجود الشمس ، ومن وجوب اخراج البلد واهلها من الظلمة الى النور ، وفكهم من اسر المستغلين ، والمحتكرين .

كان ناظم يعمل في كتابة هذه القصة بجد ، واهتمام بالغين، الا انه حين استعاد قراءة الفصول التي كتب ، فترت همته ، وتوقف عن الكتابة ، مؤثرا صب جهده كله في كتابة مسرحيته « الرجل المنسي ».

ويقيني ، مع ضآلة معرفتي في مجال الكتابة للمسرح ، ان الشعر هو ميدان ناظم الذي لا يجارى فيه ، ولا يلحق . وليس شأنه في الكتابة للمسرح هذا الشأن ، مع انه اراد في ما كتب من مسرحيات ان يبلغ شأوا رفيعا ، ويثبت مكانة مرموقة .

في أحد الايام ، وبعد يومين من اطلاق سراح بعض الرفاق، جاءني ناظم في الركن الذي اتخذت ، وقال : « مساءامس قرأت قصة كتبها « سلما لاغرلوف » الحائز جائزة « نوبل » في الاداب. وقد راقت لي ، واعجبت بها الاعجاب كله ، وعزمت على ان استمد منها موضوع هيكل (سيناريو) لقصة جديدة . ولما كانت مشاغلي تستغرق وقتي كله ، او معظمه ، فقد لجأت اليك في طلب المساعدة .»

واعترتني الدهشة مما سمعت ، واجبته : « ما احسبك الا هازلا ايها المعلم ، فليس لي في هذا النوع من العمل نصيب من المعرفة ، او الخبرة . واذا شئت ساعدتك امينا للسر ، لا مشاركا .» . فرد قائلا : « انه امر ليس بالعسير، المعقد، ولسوف ترى . لقد اخترت العنوان وهو « ايسيل فتاة القرية » . واليك النص ، فاقرأه في تمعن ، وعناية ، وضع اشارة على كل عمل ، وتحرك في شكل رقم . ولا يقتضي ذلك فطنة فائقة ، ولا خبرة سابقة .».

واندفعنا في العمل الموصول .. كان ناظم يملي علي سطور مسرحية « الرجل المنسي » ، فاذا ما تجمع منها ما يكفي ، تحولنا

الى كتابة « السيناريو » في قصة « ايسيل فتـــاة القريـــة » ، ومضينا في ذلك ، وكان الوقت يمر سريعا ، لا يتيح لنا ان نتجه بالفكر الى مشكلاتنا الخاصة .

وكنت اذا فرغت من العمل مع ناظم ، عكفت على ترجمـــة قصص « بليسكو ايبانيز » ، وانطون تشيخوف الى اللغة التركية.

وسار عملنا في « السيناريو » يتقدم في عجل ، وكنت بعد كل مشهد، وفصل اشعر بميل الى هذا العمل .

.. في مطلع الصيف ، وبعد خروجه من السجن ، استأنف ناظم عمله في استديوات « ابيك » السينمائية ، وكانت للاخـوة « ايبكجي » وكانوا ثلاثة ، وسنحت لي الظروف ان اتعرف بواحد منهم يدعى عثمان . كان شابا يغلب عليه المرح ، وحسن الطوية ، والاقبال على الحياة ، والسماح ، والرغبة في اسداء اليد بخدمة الناس . وقد زار بورصة ثلاث مرات ، ليلقى ناظم حكمت ، وحمل هدايا كثيرة اليه ، كان يفيد منها كثيرون . وكانت زيـارة أي سجين سياسي ــ آنذاك ، وفي يومنا هذا كما اعتقد ــ يتطلب كثيرا من الجرأة والاقدام ، ويعتبر امرا محفوفا بالمخاطر . ومما يذكر لهؤلاء الاخوة انهم مدوا يد المساعدة لزوجة ناظم ، حيـــن اعتقل من جديد في عام ١٩٣٨ .

ولم يكن ناظم ليقصر في اسداء الخدمة اليهم ، فقد كـان ما يكتبه مصدر مال وفير لهم ، في فترة لم يكن لناظم فيها انداد، ولا ابدال في ميدانه . ذلك انه فضلا عما يكتب ، الخبير الاوحد في الازدواج السينمائي « دوبلاج » ، وكانت الافلام التي يجري عليها فنه في هذا المجال ، افلامنا ناجحة ، واسعة الرواج . وتجدر الاشارة في هذا الصدد ان النقاد اعتبروا الحوار الذي كتبه ناظم لافلام « لوريل وهاردي » الهزلية بالتركية ، افضل واكثر امتاعا، وايناسا من الحوار الانكليزي الاصلي .

ناظم المعلم الانسان

كان ناظم يعمل ، ويبذل قصارى الجهد ، والطاقة ، وكنا نعاونه . فقد كان همه ان يخرج من السجن ، حاملا زادا ادبيا غنيا ، ليعوض به عما هدر من وقت في ايام الاعتقال .

وفي الفترة التي امضيت بصحبة ناظم في السجن تعلمت منه الكثير ، وأفدت من صحبته جزيل الفائدة . فقد كان كثير السماح ، شديد الالفة ، خالص الود ، والوفاء . واشهد بانی تمكنت بفضله من ان اقاوم العسر ، وشظف العيش ، وشح المورد ، وانا في السجن ، وبفضل منه تمكنت من ان انشر بعض القصص ، وسواها من الاعمال الادبية التي كان ما أكسبه فيها من اجر يقيم اودي ، ويضمن لي العيش الكريم ، في استنبول. الى أن اكملت دراستي .

وسوف يذكر التاريخ ، والناس ما كان يتميز به ناظم من عطف على الاصدقاء ، وعلى الناس ، وما كان يحمل في قلبه من رفق بهم ، واحسان اليهم ، ولو تعذر الاحسان ، كما يذكر ما بذله في سبيل التقارب ، والتعاضد بين الناس ، وفي سبيل ما يوفر لهم السعادة ، والامن ، والحرية ، والانعتاق.

ولن يغفر التاريخ لهؤلاء الذين حرموه من الحرية ، وحدوا منها ومن نشاطه الخلاق طول خمسة عشر عاما، قضاها متنقلا من سجن الى سجن في ملابسات اكثر ما تكون هولا ، وشقاء ، ومعاناة ..

من سجل الذكريات

كنا في مساء دافيء من امسيات ربيع بورصة كعادتنا نتخذ مقعدنا عند النافذة الوحيدة،التي تفسح لنا مشاهدة الفضاء، في عتمة الليل التي تتخللها اشعة النجوم الخافتة ، المتقطعة ،

ومشاهدة الطريق الملتوية التواء الثعابين ، الملتفة حول الغابات وهي في تصعيدها الى اعالي قمم الجبال .

كان الطابق الثالث نصف فارغ ، بانتظار ان يفرغ نصفه الاخر من السجناء الذين سوف يخرجون الى عالم الحرية الرحب، الذي طال تلهفهم للخروج اليه . وكنا قد قطعنا كل نشاط فكري لا يتفق ، واضطراب الرفاق ، وقلقهم ، وترقبهم ليوم الافراج الموعود .

وفي مثل تلك الساعات من المساء كان يحلو لناظم ان يسرح في ربوع الذكرى ، ويروي لي احداث حياته حين كان طالبا ، وخاصة حين كان طالبا في « جامعة الشعوب الشرقية » بموسكو . كما كان يحب ان يروي احداث المرحلة التي تلت ثورة تشرين الاول (اكتوبر) من عام ١٩١٧ . وقد اخبرني ان أثمن شيء في تلك الفترة كانت البطاطس ، وان اجل مهمة كانت تؤدى حراسة اكياسها .

وكان احد رفاقه الاتراك في زيارة موسكو ، اثناء زيارة ناظم لها . وكان يكره مهمة الحراسة هذه ، مما دفعه الى ان يعطي نصف ما خصص له من الموادالغذائية لمن يتكفل بالحراسة بدلا عنه . واخبرني ناظم ان ذلك الرجل كان الكاتب القصصي الشهير « نظام الدين نظيف » ، وان من بين صحبه في ذلك الحين الذين كانوا في موسكو ، « والا نور الدين » ، الصحفي ، والكاتب ، والقصصي الواسع الشهرة ، الذي وضع كتابا عنوانه : « ناظم مر في هذا العالم » ، واحمد جواد ، وسواهم .

وتحدث ناظم عن لينين باحترام ، وبشيء من الصوفية ، الممتزجة بالحب، والتقدير ، وقال : « لم تسنح لي فرصة التعرف الى لينين ، ولكنني كلفت في احد الليالي بمهمة تثير الاسى ، الا وهي حراسة ضريحه ، وهي ليلة لا تنسى . فقد كان الحزن واللوعة يغمران البلاد بكاملها ، حتى انك لتكاد تسمع نحيب الناس المكتوم ، المكبوت ، في جميع ارجاء الاتحاد السوفييتي .

كانت موسكو كلها تهدر بالبكاء ، والتفجع ، فيسمع المرء

هديرها في مهابة ، وجلال ، يبعثان في النفس تهاويل الرزء الكبير، والخسارة الهائلة ».

واضاف ناظم : « يقيني ان لينين لن يموت ، وهو حي حقا، وواقعا ، في قلوب شعوب الاتحاد السوفياتي ، والعالم ... وما احسب ان العالم قد ينجب لينين اخر .». وصمت وتاه بصره في البعيد البعيد ، كأنما ذهب في رحلة يرتاد فيها عوالم اخرى، عوالم وراء البحار ، والانهار ، وخلف الصحارى ، والمهامه ، والقفار .

وفي الليلة التالية ، جلست اليه ، وروى قصة زواجه آنذاك بفتاة من موسكو ، كانت مهندسة زراعية ، وقال : « كانت فتاة حلوة المحاسن ، بارعة الجمال، ذات قوام ممشوق ، وبشرة كأنها صفحة دراقة اوحتها شمس بورصة ، مشربة بلون وردي يبهج الابصار ، وعينان زرقاوان بنفسجيتان ، تتردد على حدقتيهما ظلال متماوجة ، تماوج امواج بحيرة عميقة عند تنفس الفجر . وكان لها شعر يعكس بريقا ذهبيا ، غاية في الروعة، والسحر، والايحاء. وكانت الى جانب ذلك مهندسة زراعية واسعة المدارك ، غنية الثقافة . وكنت أجد سعادة في أن احاورها في فن الرسم ، والادب ، والموسيقى ، والفلسفة ، وسائر العلوم ، والفنون ، فضلا عن انها كانت تجيد الرسم على انواعه . وبعد فترة طلبت اليها الزواج ، فاستمهلتني ، ودعتني الى قضاء ليلة في دارها . وكان هذا الطلب غريبا ، ولكنني رضيت بذلك ، وكانت ليلة عاطفية رائعة ».

وصمت قليلا ، ثم استأنف ، فأضاف : « وسأتجاوز سرد تفاصيل ما جرى في تلك الليلة البهية ، ثم انك في سن لا تسمح لك بادراك امور كهذه .

وفي صباح اليوم التالي ، وفيما كانت تستعد للذهاب الى مقر عملها ، سألتها عما عرضت عليها من امر الزواج ، فأجابت: « سوف تعلم جوابي بعد ان تنهض ، ونلتقي على طاولة الافطار». وحدث ذلك بالفعل فحين كنا نتناول طعام الافطار ، دفعت الي بعض رسومها ، لوحات رسمت فيها عيون ، او بالاحرى

نظرات . وسألتها عن ذلك ، وما تعني من هذه الرسوم ، فدعتني الى ان أمعن النظر فيها ، ففعلت ، فاذا في رسوم العيون ما يشبه عيني ، واذا فيها نظرات وادعة حالمة ، وعدت أسألها : «لم ادرك ما ترمين اليه ، وارجوك انتوضحي قصدك». ونظرت الي في ود ، وقالت : « في الرسوم ما يمثل عينيك ونظراتك ... وتروق لي عيناك ، ونظراتك، وارتاح اليها».ثم صمتت ، وغرقت نظراتها في عيني ، وقالت : « لقد قبلت ما عرضت علي من الزواج ».

ومضى ناظم يقول : « وتزوجنا ، ولم يكن هناك ما يعكر صفو حياتي مع زوجة جميلة ، ودار مريحة ، وحياة لا تخلو من اسباب المتعة ، والهناء . ولم يكن هناك ما ينقصها بعض الشيء ، سوى أن زوجتي كانت مفرطة الحرص على النظافة ، وكنت استجيب الى ذلك ، مع انه كان يبلغ احيانا حدود الهوس . وتطور الوضع الى ما اعتبرته ماسا بحريتي ، وبحقي في التصرف على هواي.

وفي احدى الامسيات ، عدت الى دراي منهكا من اعباء يوم حافل بالاعمال والمشاغل . ولما حاولت ان آوي الى فراشي، أصرت على ان استحم كعادتي ، فرجوتها ان يكون استحمامي في صباح الغد ، فما اقتنعت ، وزادت اصرارا ... فلم احفل باصرارها ، وذهبت الى السرير ، حيث اغرقت في نوم عميق . الا انني شعرت وانا في غفوتي الهانئة ، ان خيطا من الماء الحار ينساب فوق جسمي ، وحسبت انه من تهاويل الحلم . واستمر جريان الماء ، ففتحت عيني ، ووقع نظري على زوجتي ، وهي تصب الماء علي ، بعد ان كانت قد عرتني من كل ملابسي ، وتعمل ان تحممني عنوة ، وانا فيالسرير.

وقفزت من سريري مذعورا ، وشعرت بان ذلك قد تعدى حدود طاقتي على الصبر ، والامتثال ، وقبعت في مقعد الليل كله . وفي الصباح غادرت داري ، وقلت للسيدة المهووسة الى الوداع ..!» .

وعلى ذلك ، فانك ترى ايها الاخ الاصغر ان سعادة الانسان مطلب عسير المنال ، انه غاية لا يدرك تمامها ، وكمالها . ويقيني

ان للسعادة خيوطا من كل لون وهي نسيج ثوب غريب ، يصيبه احيانا ما يصيبه من انسلال لهذه الخيوط ، ومن تفتق فيها ، ومن تهلهل ، واهتراء.».

الحكم الجائر .. وتفاؤل ناظم

كان يوم ٢٦ نيسان من عام ١٩٣٤ موعد صدور حكم محكمة الجنايات في بورصة علي، ونص على : « ان المحكمة اقتناعا منها بجرم المتهم ، وبالاستناد الى المادة ١٦٢ من قانون الجزاء .. والى المواد ٤٥١ و ٤٥٢ من القانون نفسه ، و ... تحكم على علي ابن توفيق ، وخيرية البرجاوي ، المقيم في منزل الطلبة باستنبول، بالسجن خمسة اعوام ...» . ولكن هذا الحكم الجائر افسح لي المجال في الاستئناف اعتبارا من يوم ٦ ايار (مايو) من عام ١٩٣٤.

وفي مساء اليوم نفسه ، بعث ناظم ببرقية الى محاميه عرفان أمين ، دعاه فيها الى ان يسرع بالمجيء الى بورصة ، ذلك لان فترة حقي بالاستئناف لا تزيد عن عشرة ايام. وكان ناظم قد فوجيء بقسوة الحكم الذي صدر ، فازداد قلقه على مصيري ، اعظم القلق . وعمد الى تعزيتي ما وسعته الحيلة ، وكان يردد : « لا عليك يا بني ، ولا تحمل نفسك ما لا مبرر له من الحزن ، والعناء.. ولسوف ترى ان محكمة الاستئناف سوف تكسر هذا الحكم التافه، السخيف ، وتحطمه اربا اربا ... ان عرفان امين المحامي سوف يتولى الامر ، ويمسكه بيد امينة ، قوية .».

وكنت اجيبه : « اشكرك ايها المعلم على عنايتك بي.واهتمامك بأمري . الا انني لست كما تحسبني شديد الجزع ، والاسى ، فقد كنت أتوقع هذا الحكم ، ولم افاجأ به ، ولو انه صدر بغير ما صدر به ، لاثار دهشتي ، واستغرابي .» .

ولم يشأ ناظم أن يتقبل رأيي ، ولا ان يستسلم لهزيمة رأيه،

وزوال تفاؤله ، فأجابني في حسم ، واصرار : « اسمع يا بنـي . عليك ان تكتب حالا في امرك الى رئيس الجمهورية ، والى وزير التربية الوطنية ، ولن يكون ذلك عبثا . » .

وبادرته قائلا : « ما دام الامر كما ترى ، فلم لا تكتب انت الى رئيس الجمهورية تعرض له شكواك ؟ . » . ولم يحرجه جوابي، واسترسل يقول : « ليس بين الحالتين شبه . ومع انني لم اقترف أي جرم ، ولم أسيء الى احد ، فان هناك شعري ، الذي اعتبر مشجعا على الثورة . زد على هذا انك غريب ، وطالب لا يعـرف أحدا ، ولا يعرفه احد ، ولا صلات لك خارج نطاقك المدرسي . » .

وقد يكون ناظم محقا في ما ذهب اليه ، غير ان الكتابة الى رئيس الجمهورية لم تصادف ميلا في نفسي ، ولا قناعة ، بل كانت تسبب لي بعض الضيق ، وبعض الشعور بالجبن ، والتهالك .

ولما اطلعت ناظم حكمت على دخيلة شعوري هذا ، لم يقتنع به ، وكان رده : « اسمع يا بني ، انني ما زلت متمسكا بما ارى، وثق بان رئيس الجمهورية ليس كمثل الذين يحيطون به ، انــه عملاق ، رفيع المزايا ، والشأن . » .

الفتى لا يحدث انقلابــا ..

بعد يومين من ذلك ، وصل المحامي عرفان امين الى بورصة، وزار مدير السجن في مكتبه . وحين دخلت بصحبة ناظم ، نهض المحامي ، وعانق ناظما في لهفة وشوق ، فتبين له صفاء معدنه ، ونبل صفاته ، وبدا لي وده ، وطيب سيرته . ثم سأل ناظم حكمت عن حاله ، ثم وجهالي الحديث بقوله : « ما احسب الفتى الا صاحبنا البطل .. الا انه طري العود ، فما شأن هؤلاء الذين حكموا عليه وما خطبهم ، وهل تراهم جادين في اتهامه بـــانه كان يدبر لامر ، ويتهيأ ليحدث انقلابا على الدولة ..! حقـــا ان العالم اصبح فاقد العقل ، فاسد الرأي .. الا ترى ذلك يا حضرة

مدير السجن ؟. هل يجول في خاطر احد ، او يخطر في خيـاله ان هذا الفتى ، الذي لا يتجاوز الربيع الثامن عشر من سنـه . كان يسعى الى ان يحدث انقلابا على نظام كمال اتاتورك العظيم ؟، فما أبعد ذلك عن المنطق السليم ، وما سمع الناس ، وألفوا . ».

واحدث كلام المحامي الصريح في نبرتـه ، الـدافق بفيض الانسانية والعطف ، أثره البالغ في الذين استمعوا اليه . وكان الرجل الطويل القامة ، المعتدل الجسم ، الانيق في ملبسـه ، ومظهره ، يوحي بالكثير من الثقة ، والطمأنينة ، حتى لحسبتني أعرفه منذ زمن بعيد .

ولم يشارك مدير السجن في الحوار ، وكان يبدو منصرفا عنه الى ملف كان يقلبه ، وينظر فيه . الا انه قد اثبت حياده مرارا ، وأكد تفهمه ، وادراكه ، واستعداده لبذل ما يقدر عليه من العون . وقد لمح لي مرة انه له ولدا في مثل سني ، يتابع دراسة الحقوق في جامعة انقرة .

وفتح المحامي بعد ان انهى حديثه ، حقيبتـه واخرج منها رزمتين كبيرتين ، وقدمهما لناظم . وكان في الاولى بعض الكتب، والمجلات التي أوفدها زكريا اليه ، وكان في الثانية بعض التبغ، والسجائر ، وقد بعث به ارطغرول محسن . فشكره ناظم وحمله شكره ، وتقديره للرفيقين ، وسواهما من الرفاق ، والاصدقاء.

وقال ناظم : « فلنعد الى قصة فتانا ، واني لارغب اليك ان تهتم بها . وقد اخبرني الاخ الاصغر ان اسرته على استعداد لتحمل ما يستدعي ذلك من نفقات ، بما فيها أجرك ». وعندما انتهى ناظم الى الجملة الاخيرة من حديثه ، نظر الي المحامي مليا ، وفي لفتة عطف ، وترفق ، وضع يديه فوق كتفي ، وقال : « اصغ الي ايها الفتى .. انني في غنى عن ما يعتزم اهلك من بذل . وكل ما أصبو اليه ان اساعدك ،وارفع عنك الظلامة . ».

وبعد ان حررت الوكالة للمحامي، وجه حديثه الى ناظم فقال : « سوف ادرس ملف قضية الفتى ، بعد ظهر اليوم ، ثم أمر بك في صباح غد ، قبل عودتي الى استنبول . »

فلما عدت الى السجن ، شعرت بان بعض العبء قد انـزاح عن كاهلي ، وبأن املا وليدا قد بدأ يلوح في أفق حياتي . فلمـا تبين ناظم ما طرأ من تبدل علي ، أعرب عن سروره ، وارتياحـه، وطمأنني ان عرفان امين سوف يتمكن من ان ينتزع لي الحكـم بالبراءة ، وييسر لي سبل الحرية ، والخلاص ، وقال : « انـه بارع ، ساحر ، ولسوف ترى ، وتتحقق مما قلته لك . » .

وفي الغداة ، استدعينا الى مكتب مدير السجن ، فوجدنا عرفان امين منتصبا وسطه ، مبتسما ، مشرق الابتسامة . وظللنا واقفين . وفي صوت اكثر ودا ، وايناسا حدثني عرفان ، فقال : « ان الوضع هو كما يلي : لقد درست ملف قضيتك بعد ظهر امس، فهالني ما في الحكم من جور، وما وجدت فيه من مهانة للقضاء، واستهانة بالعدالة . وقد حرصت كل الحرص على ان اجد فـي قضيتك ما يمكن ان يبرر هذا الحكم ، او ما يعتبر مأخذا عليك مهما ضعف شأنه ، وخفت قيمته . فما وجدت من ذلك شيء . فاهدأ ايها الفتى ، واطمئن ، واهنأ بالا ، فلن يطول بقاؤك محتجـزا ، مرتهنا حيث انت . ».

ثم قدم الي رزمة ، وقـال : « مساء امس كنت في زيارة صديق قديم ، واسع العلم، والمعرفة ، وقد حدثته عنك، فوجدته عالما بكل جوانب قضيتك . وقد أعطاني هذا الكتاب القديم حول « فضولي » اكبر الشعراء الكلاسيكيين الاتراك ، لاحمله اليـك هدية منه ، أثق بانها سوف تفوز برضاك . ».

وقد تأثرت بهذه البادرة السمحاء ، ومست موقع التقدير والعرفان من نفسي ، حتى سال دمعي على خدي . ومضى عرفان فقال : وهو يداعبني : « احترس ايها الفتى، فانك تلامس مشاعري، واحساسي ، فلا تفعل ، وانني حيث تجدني الان اسعى الى ان أحل الفرح ، والامل محل الاسى ، واليأس في قلبك . ».

الكنز المفقود .. وسيف ديموقليس

كان شهر ايار (مايو) من اجمل شهور السنة لطفا في الجو، وسخاء في الدفء والحيوية . ومع السجن ، شعرت بذلك ، في النسيم الذي تنشقت، وملأت به رئتي، وفي الطبيعة التي شاهدت من نافذتي ، وقد ارتدت اروع ما رأيت من رداء ، واتشحت بأفتن ما عرفت من وشاح.

ففي هذه الفترة من كل عام يعود للطبيعة صباها ، وتعود عروسا مجلوة فتنة للعين والروح ، والحواس جميعا . عروسا ناضجة ، تضج بالحسن ، والعافية ، وبالعطاء السمح ، الواعد . وكان الطابق الثالث من السجن قد خلا من الرفاق الذين كتب لهم ان يعودوا فينعموا بالحرية الغالية ، ما عدا ناظم حكمت ، وثلاثة من صحبه ، الذين لن يلبثوا جميعا ان يأخذوا طريقهم الى عالم الحرية الرحب الجنبات . فاذا ما كان ذلك فلسوف ينقلني مدير السجن الى زنزانة انفرد بها ، موقعها في الطابق الثاني من السجن، في الجناح الغربي اياه .

وعلمت ان ملف قضيتي قد ارسل الى « أسكيشهر» ليحال الى محكمة الاستئناف . وكنت قد كتبت ، بالحاح من ناظم،رسالة الى رئيس الجمهورية ، وثانية الى وزير التربية الوطنية ، وهو زميل صهري ، زوج اختي في المدرسة ، سلمناها الى مدير السجن ، وائتمناه على ارسالهما بالوسائل المتبعة .

وما اذكر نص ما كتبت في الرسالتين بدقة ، ولذلك فان أسفي ما زال كبيرا على انني قد عمدت قبل ان يطلق سراحي الى اتلاف جميع ما كان لدي في سجل الذكريات ، وجميع رسومي ، وصور ، وكتب ناظم التي اهداها الي بتوقيعه، وذلك تجنبا للملاحقة من المباحث جديدة . واليوم ، وبعد مضي زمن بعيد ، ما زال اسفي يزداد ، ولوعتي تتعاظم على هذا الكنز الذي اضعت ، وهذا التراث الذي فقدت . غير انه ليس الوحيد الذي أضعت، وفقدت في حياتي ، بل أتلفت من مخلفات الذكرى ، ومن

كل ما يحرص عليه الناس ، ما وسعهم الحرص . ان حياتي القلقة المضطربة لم تبق لي على شيء ، ولم تترك لي كل ما كنت به ضنينا ، وما سمحت لي ان اجد ما اضعت، واستعيد ما فقدت، وأجمع ما اتلفت ، وابني او ارمم ما صدعت ، وهدمت .

كنت خلال اقامتي في استنبول ، وسواها طريدا ، مراقبا، يتبع رجال المباحث خطواتي ، ويرصدون حركتي ، وسكوني . ولم أزل في هذه الحال ، فذلك قدري ، وقدر الشرفاء من الناس ، الذين يظلون طريدة دائمة لرجال المخابرات ، وعملاء المباحث السريين . الشرفاء الذين يستهويهم النضال في سبيل سعادة الانسان ، وفي سبيل الحرية ، والسلام ، كي تعم العالم شرقه، وغربه ، قاصيه ، ودانيه . وان اولئك الذين يناضلون كي تسود العدالة الاجتماعية ، والمساواة بين البشر ، لا يجدون في ارجاء العالم الواسع مقرا لهم ، ولا ملجأ ، ولم يكتب لهم ان يعرفوا للاطمئنان معنى ، ولا للدعة ، والامن طعما . ويظل سيف النقمة والانتقام ، سيف « ديموقليس » مسلطا فوق رقابهم ، بارق النصل في كل افق من الافاق يستشفون ، وفي كل درب من الدروب يسلكون .

ناظم يحلم بالهجرة الى لبنان ..

كان ناظم موقنا بان محكمة الاستئناف سوف تحكم ببراءتي، قبل موعد بدء الدراسة ، وبأننا لا بد ان نلتقي في الخريف بمدينة استنبول ، مهوى فؤاده .

وكان قد أسر الي بأنه لا يعتزم البقاء طويلا في تركيا بعد أن يسترد حريته ، وانه يفكر في الهجرة الى لبنان ، ليستقر في بيروت ، مصطحبا زوجته بيرايه ، وعلي غالب ، وصديقا قديما، هو صحفي ، وكاتب ، ذلك على أن أسبقه الى لبنان ، لامهد له سبيل الهجرة والاستقرار . وكنت في دخيلة نفسي غير مؤمن

بامكان هجرة ناظم ، وبأن عقبات كثيرة سوف تعترض هجرته هذه ، وتحول دونها .

أما بالنسبة الى هجرة علي غالب الى لبنان ، فقد كانت ميسورة ، لانه عربي ، ومن أمهر الخبراء في صناعة الحديد ، ولن يعدم وسيلة ليجد عملا لائقا به ، يرتزق به . وفي ما يتصل بي . فقد كان ناظم يرى أن أكمل دراستي في جامعة اليسوعيين، افضل الجامعات آنذاك في لبنان .

ومع ايماني بصدق عزيمة ناظم على الهجرة ، ومع ايماني بصعوبة قيامه بها ، الا انني لم أبد له معارضة لها ، ولا رفضا، وتركت الامور تسير سيرها العادي .

كان ناظم من أطيب الناس سريرة ، واكثرهم اندفاعا في الصداقة ، وفي البذل والعطاء للاصدقاء ، دون ان يتوقع منهم ان يبادلوه البذل ، والعطاء . وكثيرا ما صادف الخيبة في هذا المجال ، وعاني التنكر ، والعقوق . لقد كان مثاليا ، متجردا، وقد عبر عن خيبته المتكررة في بيت من الشعر قال فيه : « لقد اصبحنا اساتذة محنكين في التمييز بين الاصدقاء ، والاعداء..!» ومع ذلك لم يتوفر لناظم من الدهاء ، والمكر ، ما يؤهله للتمييز بين الاصدقاء الحقيقيين ، والاعداء الحقيقيين .

.. كنا في هذه الفترة منصرفين الى العمل ، والنشاط في دأب ، واندفاع ، لا يحد منهما اعتدال المناخ ، وصفاء الجو، ولو قيل ان ذلك من شأنه انيغري الشرقيين بالتراخي ، والكسل ... وكان ناظم ينظم الشعر ، ويسعى في آن الى ان ينجز كتابة قصته : « الانسان المنسي » ، ويعد برامج اعماله الادبية في المستقبل . ومن ناحية اخرى كان يضع اللمسات الاولى من«ملحمة الشيخ بدر الدين سيماوي » ، وكنت أتولى في هذا العمل مهمة أمين السر ، بدلا عن نائل ، الذي أطلق مع رفاقه من السجن . وكنت في الوقت نفسه أعد دروسي استعدادا لامتحان نهاية العام ، واترجم مع ذلك بعض القصص ، والاقاصيص .

مشروع دراسة عن الاشتراكية في الاسلام

حين كان ناظم يحدثني طويلا عن مشاريعه الادبية ، وخاصة «ملحمة الشيخ بدر الدين » ، لاحت لي فكرة كتابة دراسة عن « الاشتراكية في الاسلام » . وحدثت ناظم حكمت في ذلك ، فاستمع الي مليا ، ثم قال : « انه عمل كبير ، وشاق ، يا بني، يستدعي كثيرا من الدراسة ، والمتابعة ، والتوثيق. ولست واثقا من ان تتوفر لك المراجع الكافية ، والوقت الذي تقتضيه هذه الدراسة .».

وأجبته في نبرة تحمل الوثوق ، والعزم ، واكدت له ادراكي بجلال المهمة ، وبما تتطلب من جهد ، وجلد ، وانكباب ... ومرت ايام ، وحملت الى ناظم في احد الايام من عام ١٩٣٧ مخطوطة دراستي حول « الاشتراكية في الاسلام » . وكانت دهشته كبيرة، وكاد ان يكذب بصره في ما وقع عليه ، وقال ونبرة الشك في حديثه : « لو كنت شيخا مثلك ، ولو كنت اعرف العربية ، واحفظ القرآن لكتبت ملحمة حول نشأة الاسلام ، وغزواته في كل صعيد . غير أن هذا الموضوع لا يشغلني الان ، ولا يصرفني عما بين يدي ، وما يشغلني من عمل ».

واجبته في شيء من المرارة : « ذلك مما يستدعي الاسف ايها المعلم ، لان عملا مثل هذا ، لو خرج من بين يديك ، لكان تحفة ادبية ، وتاريخية رائعة، ولكان العالم الاسلامي قد حفظ لك يدا سابغة على مدى الايام . ذلك ان في الاسلام كثيرا من المبادىء التي تتفق والاشتراكية ، بل ان في الاشتراكية كثيرا من المباديء التي استلهمت من الاسلام .».

وقال ناظم : « صدقت يا بني ، ونسيت انك واحد من ابناء هذا الشعب ، شعب القرآن المبارك، المقدس .».

عثمان المغني .. وحسين العاشق !

أطلق سراح ناظم ورفاقه في حزيران عام ١٩٣٤ ولم يبق منهم سواي ، وسوى عثمان ، وهو من أضنة ، في جنوب شرق تركيا . وكان قد حكم عليه بالسجن اربعين يوما ، لتخلفه عن دفع ضريبة عقارية .

كان عثمان هذا من اصل كردي ، وكان في الثلاثين من عمره. ومن صفاته المرح ، والتفاؤل ، حتى انه كان يغني طول يومه الاغاني الكردية ، ومنها اغنية كان يرددها دوما ، وفيها :

«يا جميلتي الحبيبة»... وهي بالكردية «ايز هاتوني لوركا».

كنت تحسبه غافلا عما حوله ، مستهينا به ، وكنت تجده رائق الطبع ، هادىء المزاج ، باسم الثغر . وكان يقول لي : « لا تحزن ، ولا تخف، فكل شيء عابر ، زائل ، وكل حال الى تحول، وتبدل . ».

كان يحدثني عن امه ، التي كان يؤثر بحبه ، وحنانه ، والتي خلفها وراءه في اضنة ، حين ادخل السجن . وكان يقترب مني، كلما كنت اجلس بالقرب من النافذة، عند المساء ، وينطلق في غناء عذب ، رقيق ، فيه الرخامة ، والحنين ، والشجى الذي كان ينساب في هدأة الليل فيبعث في النفس كوامنها ، وفي الارواح هواجسها ، وفي القلوب اشواقها الدفينة العائدة .

وانضم الينا بعد ذلك رفيق آخر هو حسين ، وهو من سجناء الحق العام ، وكان مقره الطابق الثاني ، تحت الجناح الذي يضمنا من السجن . وكان هو الاخر لا يفتر عن الغناء ، وكان اكثر غنائه في الحب ، والهيام ، وكانت اغنيته المفضلة لديه تلك التي كان يردد فيها : « انني لا احفل بالسجن .. ولكن ألم الفراق. فراق الحبيب هو ما يحرقني ، وما يقض مضجعي . ». كان غناء هذا الفتى الاتي من قضاء « أورخان غازي » ، أحد اقضية بورصة. مما ينساب الى القلوب ، ويتسلل اليها دون اذن ، ولا حائل .

كان غناء شعبيا اصيلا في مصادره ، عفويا في اغراضه ، صادقا في مؤداه ، وما يعبر عنه من احاسيس .

وكانت لهذا الفتى الذي لا تتجاوز سنه التاسعة عشر ربيعا قصة نسجها جنوح الشباب، وحاكتها فورة العاطفة ، والوجدان، فاستحق بسبب ذلك سخط قضاة محكمة جنايات بورصة ، وغضبهم ، دفاعا عن الفضائل الموروثة ، والتقاليد الراسخة في مفاهيم العفة ، والشرف ، والاباء ...!

كان الفتى عاشقا فتاة في السادسة عشرة من عمرها ، من « بنات الجيران » ، كما يصدف في غالب الاحيان . وكان عشقه لها متهورا ، جارفا ، تصدى له ذووها بالتمنع ، والرفض الصارمين . لم تكن « عائشة » ، وهذا اسم الفتاة، فائقة الحسن، بل فتاة من فتيات الريف ، طريةالعود ، ندية القوام ، يتدفق دم الشباب في عروقها ، ويتجلى في ورد خديها ، وفي بريق عينيها ، وحمرة شفتيها ، وفي حيويتها ، ونشاطها اللذين لا يعرفان الفتور ، ولا السكون .

وزاد تشوق حسين لعائشة ، وتفاقم ، فلم يعد يطيق على بعدها صبرا ، فتملكه الحزن ، واستولت عليه الكآبة ، واهمل عمله ، وتفرد عن الناس. كل ذلك واهل الفتاة ماضون في عنادهم، ورفضهم أن يجمعوا بين العاشقين بالزواج .

وفي احدى الليالي ، شرب حسين حتى ثمل ، واتجه الى دار الفتاة ، وتسلل الى حجرتها . وشعر أهلها به ، فلجأوا لى رجال الامن ، الذين هرعوا الى الدار ، واعتقلوه بالجرم المشهود.

والاغتصاب في تركيا جرم كبير ، فاضح، لذلك حكم على حسين بالسجن سبعة اعوام ، وصدم الواقع حلمه ، الذي لم يدم سوى ساعة قضاها بالقرب من حبيبته . لذلك تجده اليوم يغني في سجنه غناء يعبر عن يأسه من الحب الفقيد ، وعن خيبة امله ، وعن عذابه الذي لا ينتهي ، وليله الذي لا يؤذن بالصباح.

وكان حسين واثقا من أن عائشة تترقب خروجه من السجن،

وأنها لن ترضى بسواه زوجا لها ... غير ان ما حدث ، هو أن أهل عائشة اكرهوها على أن تقترن بتاجر صغير ، اختارته لها. كان حسين يجهل ذلك ، ويعيش في ظل أمل يهدهده ، ورجاء يداعبه بأحلى الامنيات . ولم يكن يجرؤ احد على ان ينبئه بزواج عائشة ، ويصدم حلمه الغالي ، بالواقع القاسي، المرير ، اشفاقا عليه ، من ان يجن ، أو يقضي حسرة ، وكمدا .

واليوم ، تراني أمد الطرف ، عبر نافذتي ، يشاركني في ذلك الرفيق عثمان ، الى كوخ ريفي ، قائم وسط بستان ظليل ، يانع الثمرات ، في هذه الفترة من الربيع . ويذهب تفكيري الى حسين كل مساء ، حين كنت أرقب الضوء المنبعث من هذا الكوخ ، واشاهد ساكنيه ، وهما رجل وزوجته ، جالسين الى عشاء متواضع ، يشربان لبن « العيران » .

ولكم تمنيت ان أرسم هذه اللوحة على الطبيعة ، ولكنني لم أفعل ، ولست أدري ما الذي حال دون امنيتي هذه ، وما هي الامور التي شغلتني عنها . غير ان المشهد قد ارتسم في خاطري ، وذاكرتي ، ولم يتسلل اليه النسيان بعد اربعين عاما، كما لم يتسلل النسيان الى صورة حسين في ذهني ، وقصته العاطفية ، الانسانية ، ذات الخاتمة المأساوية الكئيبة .



الفصل الثالث

الحرية .. وبعض الذكريات

راودتني افكار، وافكار حول الحرية التي أحلم بها . وليس قصدي ان أحدد اين تبدأ الحرية ، واين تنتهي ، وما هي معالمها، وتخومها . ويقيني ان الحرية لا تعرف حدودا ، ولا تخوما، فمن مجافاة المنطق أن نقدم على ذلك .

لقد وضعت الاف الكتب حول الحرية ، وسوف توضع كتب كثيرة اخرى ، لا عد لها ولا حصر . ويخيل الي ان في ذلك كله عبث لا طائل تحته ، وجهد مهدور لا جدوى منه . ذلك لان الكتابة عن شيء غير موجود ، وتحليل مادة مصنوعة من الوهم، لن يفضيا الى نتيجة ايجابية ، مفيدة . ان المرء اسير دائم الاسر في حياته اليومية الخاصة ، والعامة ، في ذاته ، وفي المجتمع... وبعد فما هي الحرية ؟... انها بالنسبة الى مليارات من البشر في العالم تتمثل في الطعام والغذاء. ان اولئك الذين مسهم الجوع ، والحاجة لا يفقهون من المحاضرات ، والمناقشات ، وألوان الحوار ، والثرثرة شيئا . انهم في شغل عن ذلك كله ، لا يعنيهم سوى كسب القوت ، وتوفير الدواء لاطفالهم ، الذين يموت عشرات الالوف منهم كل يوم في أرجاء العالم ، من الهزال والمرض ، ونقص التغذية .

ان الحديث الدارج عن الحرية ، والتقدم ، وعن حقوق الانسان ، حديث هراء ، فيه من السخرية ، اكثر مما فيه من

الجد ، وفيه من الاستهتار بعقول الناس ، وبواقع البشر ، ومن الاستهانة بما تبقى من كرامتهم ما ليس باليسير .

.. في السجن وحده ، ودون سواه يستطيع المرء ان ينشد وحيدا ، او مع رفاقه ما شاء من نشيد ، سواء كان نشيد الاممية، أو نشيد النازية ، او الفاشية، او سواها مما يتفق وقناعته الاجتماعية ، او السياسية ..

وفي السجن تستطيع كذلك ان تحاور اصدقاءك ، ورفاقك سحابة النهار ، او في عتمة الليل ، حول الماركسية ، واللينينية، والفاشية ، والليبرالية ، والوطنية ، والقومية ، والديمقراطية، والدين ، وما يتصل بذلك كله من قريب او بعيد فلا يحول بينك وبين ذلك حائل ... اما اذا حاولت ان تتحدث بذلك كله، وتحاور فيه خارج اسوار السجن ، ومع سائر الناس ، فانك هالك لا محالة في ظل اي نظام فاشي . تعتقل، وتلقى في غياهب السجون، او يطوح بك حيث لا تدري ، ولا يدري أحد موضعك او مصيرك .. واذا ما كنت في ظل نظام ديمقراطي مزعوم ، تعرضت كذلك لما تتعرض له في سواه من الانظمة ، ولو تحت اي ستار ... ان ما يفرق بين الانظمة الشعارات ، وتبقى الوقائع متشابهة، متقاربة .

.. وأعود الى قضيتي ، لاذكر أن محكمة الاستئناف قد نقضت حكم محكمة جنايات بورصة بحقي نقضا كاملا . واستدعيت الى مكتب النائب العام في بورصة ، تمهيدا لاحالة قضيتي على محكمة اخرى ، لان هيئة المحكمة السابقة كانت في اجازة ...

كان ذلك في اوائل شهر ايلول (سبتمبر) من عام ١٩٣٤ . وبطلب من النائب العام ، ووفقا لقرار محكمة التمييز ، اصدرت المحكمة الجديدة قرارا بالافراج عني ، ومتابعة نظر القضية ، في حضوري ، ام في غيابي .

فوجئت بهذا القرار ، بعد ان كاد اليأس يتملكني ؛ واخذت أتساءل : ترى هل ان المحامي عرفان امين هو الذي وفق الى هذه المعجزة .. أم تراها كانت نتيجة الرسالتين اللتين وجهتهما الى رئيس الجمهورية ، والى وزير التربية الوطنية ؟ ام ترى الفضل

يعود الى القضاة الجدد ، الذين لا سبيل الى مقارنتهم بالقضاة السابقين ، الذين كانوا اشبه بقضاة محاكم التفتيش ؟.. لقد لمحت رئيس المحكمة يوجه الي نظرات ملؤها العطف ، والحنان ، وكدت اقول نظرات ابوية كريمة .

واخذت أسأل نفسي ما اذا كان ناظم حكمت مصيبا ، حين ألح علي في ان اوجه كتابي الى رئيس الجمهورية ، ووزير التربية ... ولم أوفق في معرفة الاسباب المباشرة التي جعلت «المعجزة» تتجقق ، بأكثر مما ذهب اليه ظني ، وحدسي.

ومهما يكن من امر هذه « المعجزة » ، ومن ، وما كان وراءها الا ان الحقيقة الراهنة انني اصبحت طليقا ، انعم بالحرية، وارفل في ثيابها الواسعة ، الفضفاضة .

قليلون من الفتيان ممن كانوا في مثل سني ، وهم كثر في هذا العالم الفسيح ، قد تعرضوا الى تجربة كالتي تعرضت لها ، وعانوا المحنة التي امتحنت بها . لذلك ، شعرت حين غادرت السجن انني قد شخت ، وتقدمت بي السنون ، واكتسبت من الخبرة ، والمعرفة ، ما لا يتسنى لاحد سواي من اقراني.

وفارقت السجن حاملا حقيبتي ، وسرت سيرا وئيدا في رحاب الحرية ، وسلكت الطريق الموصل الى وسط المدينة . ولما كان وسواس شرطة المباحث ما زال عالقا في ذاكرتي ، ووجداني، جعلت أتلفت الى خلفي ، خشية ان يكون واحد منهم يتعقب اثري، ويتبع خطاي. وبلغت فندقا بدا لي مريحا ، وحجزت فيه غرفة خاصة ، بانتظار سيارة الاوتوبيس التي تسافر بين بورصة ، واستنبول ، وكانت السيارة الوحيدة ، وكان موعدها في الغد. وتحممت بماء ساخن ، ادركت به ما يقصده الذين يصفون الحمام بأنه نعيم الدنيا، ثم ارتديت ملابس انيقة، بينها قميص من الحرير، ناعم النسيج ، متقن الصنع ، والتصميم ، كنت قد اشتريته من محل سوبرة اخوان ، المختصين بتصميم ، وصنع القمصان في بيروت .

وما زلت اذكر استقبال منير سوبره لي ، وترحيبه بي ،

حين عرف انني ابن توفيق برجاوي وكان صديقا حميمـــا له . والغريب في الامر انه عرفني لاول وهلة، وسألني ما اذا كنت ابن توفيق . ثم شرع يحدثني قائلا : « ان والدك كان اكثر اهل لبنان اناقة ، وحسن مظهر . ». وانهمرت الدموع من عينيه ، واضاف: « لقد كان والدك مرهف الحس والذوق ، لم اعرف مثله من الناس في ارهافه ، وفي ثقافته ، وفي رشاقته ، وطلعته البهية ، ومشيته الواثقة المهيبة . ».

وتأثرت لحديثه ، وشكرت له عاطفته ، ونبله ، ووفاءه الذي ندر بين الناس . وحين ذهبت اليه في الاسبوع التالي لاستلـم القمصان ، رحب بي ، وقال : « هذه هي قمصانك يا علي فائق. وقد ضممت اليها بعض ربطات العنق ، وبعض الاشياء الصغيرة، مما قد يفيد الشباب . ».

وتناولت رزمة القمصان و « الاشياء الصغيرة » ، وسألتـه عن ثمنها . فاستنكر سؤالي وقال في دهشة : « ثمنها ؟ وهل تحسب انني سوف اتقاضى ثمن قمصان من ابن علي توفيـق ؟ لا غفر الله لي لو فعلت ، فان في ذلك ما يسيء الى ذكرى والـدك، وما انا بالذي يسيء الى ذكراه .. سامحـك الله يا بني ، فمـا لي في ذمتك شيء . ».

وضقت ببادرة الرجل ، واصابني بعض الحرج . غير انـني لم اشأ ان اقابل وفاءه،ومودته بما لا يستحقان من تقدير،وعرفان. وكان ذلك كله قبل رحيلي عن بيروت الى استنبول قبيل بـدء دراستي الجامعية لعام ١٩٣٢ ــ ١٩٣٣ .

ولما ارتديت احد هذه القمصان ، كما اسلفت ، عادت بـي الذاكرة الى الموقف الذي ذكرت ، الموقف المؤثر في الوفاء، والكرم، الذي لا ينسى ، وسالت عبرات حادة من عيني للذكرى .

في ضيافة ناظم

حللت في فندق قرب المرفأ بمنطقة « سيركيجي » من مناطق استنبول . وكان ناظم حكمت قد أعطاني عنوان دارته ، وألح علي أن اتوجه لزيارته ، فور خروجي من السجن . غير انني آثرت الاقامة في الفندق أياما قليلة .

وحين خرجت الى باحة الفندق ، وقع نظري على رجل يقرأ في صحيفة ، او يتصنع قراءتها ... وكان ذلك بعض اسلوب رجال المباحث التقليدي ، في اخفاء مهمتهم بمراقبة الناس ، او بعضهم من الذين يقيمون في الفندق ، او يترددون عليه ... ومع انه لم يكن في مظهري ، وسلوكي ما يثير الريبة، فقد آثرت ان لا يعلم احد بعزمي على زيارة ناظم حكمت .

ولما اتجهت صوب رصيف الميناء لاستقل المركب الى « قاضي كوي » ، كنت اتوقف المرة بعد المرة ، واتلفت كي اتيقن من ان ذلك الرجل لا يقتفي خطاي . وزيادة في التقية والحذر ، تعمدت ان اتصنع العودة ادراجي الى الفندق . وفي تلك اللحظة شاهدت رجل المباحث ، وقد بدت عليه الحيرة والارتباك ، وتسمّر في مكانه. فأفدت من الفرصة السانحة ، وتوغلت في الطريق يمينا ، ثم يسارا ، لاعود اخيرا الى رصيف الميناء .

وفي « قاضي كوي » استقليت القطار المتوجه الى «ايرنكوي» حيث يقيم ناظم ، وعائلته . ولم يصعب علي حين نزلت من القطار في شارع « ادهم افندي » ان أجد دارة ناظم القديمة ، وسط حديقة ظليلة ، وكان بابها مشرعا . وقبل أن ادخل ، تلفت . فلم أجد احدا في الشارع المقفر من الناس . وقبل أن أدق جرس الدارة ، سمعت اصواتا آتية من الناحية الاخرى في الحديقة، فاتجهت الى مصدرها ، فاذا بناظم جالسا في كرسي طويل ، وحوله ثلاث صبايا من النساء . وما ان رآني حتى نهض في ما يشبه القفز ، وعانقني ، وهو يصيح : « يا للمفاجأة ، يا للمفاجأة، انظري يا بيرايه من الاتي لزيارتنا .. انه علي فائق نفسه ، علي

اخونا الاصغر .»» وتحلق النسوة الثلاث من حولي ، فقدمهن ناظم الي : هذه بيرايه التي تعرفها من قبل ، وهذه « فخامت »، و « سلما » ، شقيقتابيرايه . وظللنا وقوفا ، وشقيقتا بيرايه تحدقان في بنظرات ملؤها الرقة ، كما لو كنت شقيقا لهما عائد من بلد ناء ، بعد غياب طويل .

ودعيت الى الجلوس في مقعد مريح من الخيزران ، وجلس الجميع من حولي ، والابتسامة ملء ثغورهم ، والبشر والايناس ملء وجوههم . ولاول مرة شاهدت بيرايه عن قرب ، فاذا هي امرأة جذابة ، باهرة الحسن ، بشعرها البرتقالي كنار متأججة لا تخبو ، وبعينيها العسليتين ، الناضحتين بالسعادة ، والامن، لوجود الرجل الذي احبت طول حياتها ، غير بعيد عنها . كانت بيرايه قد وقفت حياتها كلها على ناظم وفي سبيل اسعاده . وكان حبها له كبيرا ، متماديا لا يعرف حدودا ، غنيا لا ينفد، متأججا لا سكون له ، ولا فتور.. وقد اتيح لي أن ألمس مقدار هذا الحب، من قريب ، حين نزلت في دارهما فترة غير قصيرة من الزمن . وأدهشني ان بيرايه كانت لناظم بمثابة الام ، والاخت، والرفيقة، والصديقة . وقد ظلت وفية له ، مع ما تعرضت له علاقتهما من طلاق لم يكن في الحسبان ، واحسب أن لم يكن لهما فيه يــدان .

وفوق ذلك كله ، كانت بيرايه تبذل صداقتها لاصدقاء ناظم، ورفاقه الذين عرفتهم . وكانت تعتني بمن يصيبه المرض منهم اياما، واسابيع ، وشهورا . فهي التي اعتنت بصديقي ناظم فؤاد، ونائل ، اللذين اصيبا بالسل ، تلازم سريريهما ، وتسهر عليهما آناء الليل واطراف النهار . وكان فؤاد من المقربين الى ناظم ، وقد تلقى دروسه العليا في جامعة « شعوب الشرق » بموسكو ، ثم وافته المنية قبيل عام ١٩٣٣.

كان يحل في بيت ناظم ، فضلا عن زوجته ، « وداد باشمار» زوج «فخامت» ، شقيقة بيرايه . وقد عرفته ودودا ، مرحا ، كريم النفس ، مضيافا . وقد بلغني منذ عشر سنوات نبأ وفاته، فحزنت عليه أعمق الحزن .

كما كان يعيش في الدار « سلما » ، شقيقة بيرايه الثانية ، ووالدتهم ، وكانت سلما عزباء ، تتمتع بثقافة واسعة ، وبخلق رضي، وبقلب يتسع لصداقة الناس جميعا . وقد نشأت بيني، وبينها مودة صافية ، لازمتنا حتى رحيلي ، وما زلت احفظ لها أجمل الذكرى . وكانت فجيعتي كبيرة حين بلغني نبأ وفاتها ، في ما بعد ، وكانت بعد في ريعان الصبا ، وريق العمر .

وحان موعد رحيلي ، وانفصالي عن هذه الاسرة ، التي تروق صحبتها ، وتحلو ضيافتها ، واخذت استعد للسفر . وما ان ابديت رغبتي هذه حتى ضج الجميع بالرفض ، وتألبوا علي محاولين ان يثنوني عن عزمي . وتدخل ناظم ، فقال لي : « اني أعلم ايها الاخ الاصغر ان ليس هناك ما ينتظرك من عمل ، ولا ما يستعجلك من شأن . فاذا لم يكن في اقامتك بيننا زمنا اطول ما يضايقك، او يثقل عليك ، فابق محمودا ، ولست أرى ما يدفعك الى الرحيل . ».

وعجزت عن الرد ، واعوزتني الحجة ، والحيلة ، فرضخت وبقيت في كنف هذه الاسرة ، في أفضل ضيافة ، واكرمها .

وعند المساء جاءنا وداد ، زوج « فخامت » ، وكان شابا قريب الود ، دائم الابتسامة ، ميالا الى المرح ، والهزل . وقد صافحني بحرارة ، وشكر لي بقائي ، وقال : « لقد أقلق ناظم راحتنا وهو يحدثنا عنك ، دون كلل ، ولا ملل . وما احسب بعد أن شاهدتك انه كان يبالغ في حبه لك ، وتعلقه بك . ».

ثم جلسنا الى العشاء ، ومدت مائدة فيها ما لذ، وطاب ، وفيه « المازة » المتنوعة الاصناف ، والجبن اللذيذ . ثم جاء وداد بزجاجة عرق ، ففتحها ، وصب لنا جميعا .

لم اكن قد شربت الخمرة من قبل ، ولم أكن أعرف لها مذاقا . الا انني شربت على كره مني ، رغبة في مجاراة هؤلاء الاصدقاء الكرام ، واشفاقا من أن انغص عليهم ما ساد من ألفة ، وسرور.

وكانت ليلة هانئة ، ما زالت ذكراها عالقة في ذاكرتي ،

وفي الصميم من وجداني . كانت ليلة يحف بها المرح ، ويظللها الانس ، والحبور ، كما لو كانت ليلة احتفال ، او عيد .

وبعد العشاء أخذ الجميع يتحاورون ، ويتندرون ، وجرى نقاش بين بيرايه ، و«سلما» ، حول آثار القاص الانكليزي « جاك لندن » ، وكانتا مطلعتان اوسع الاطلاق على اللغة الانكليزية ، والادب الانكلو ــ سكسوني.

ولما صحبني ناظم في نهاية الجلسة الى غرفتي قال لي : سوف نلتقي قريبا في بيروت . وسوف يوافيك علي قبلي ، ولا ألبث حتى اتبعه .».

في أرض الوطن .. وفوق جباله

وصلت بيروت ، فوجدت دارنا على ما عهدت من نظافة ، وترتيب ، ومن آنية الزهور التي كانت تنتشر في كل زاوية منه. وكانت والدتي قد أعدت غرفتي أحسن اعداد ، وجعلت كتبي، وملفاتي، واوراقي، حيث تعودت ان تكون ، ومسحت مكتبي ، حتى بدا لامعا ، براقا ، كأنني لم أفارقه زمنا طويلا .

وكان لقائي ، ووالدتي ، لقاء مؤثرا ، وكانت فرحتي بلقاء وطني ، بعد يأس ، واسرتي بعد فراق مؤلم، ومحنة عصيبة ، مما لا يحتويه وصف ، ولا يعبر عنه لفظ . وكمألوف العادة ، وفد جميع أسرتي للقائي ، في حشد تجمع في دارنا . واتضح لي أن ايا منهم لم يكن على علم بما حدث لي. ذلك ان والدتي لم تنبىء به احدا سوى عمي أحمد ، في ستار محكم من الكتمان .

كنا في نهاية الاسبوع الثالث من شهر ايلول (سبتمبر) عام ١٩٣٤ . ومع ان فصل الصيف لم يطل ، فقد رغبت الى والدتي أن نمضي في الجبل اسبوعين . فسرت لما دعوتها اليه ، وخيل الي انها كانت قد مهدت لذلك قبل مجيئي.

وعلقت والدتي على ذلك بقولها : « اصبت يا بني في ما عزمت عليه ، ويقيني ان عمك احمد يشاطرك الرأي ، فقد اخبرني بأن صديقا له يملك فندقا عائليا في بحمدون ، وهو من اكثر الناس تقديرا لعمك ، ووفاء ، لان عمك الطبيب قد اعتنى به في مرضه، أفضل العناية ، واعانه على أن يشفى من مرضه ، ويسترد عافيته، ثم انني اجد فيك نحولا ، وشحوبا ، فلا بد ان تمضي في الجبل أياما ، وسوف يصحبنا عمك في رحلتنا . ».

وملت على والدتي ، فقبلتها ، وقلت : « لقد هيأت ايتها الام الحبيبة كل شيء قبل مجيئي ، فما أغفلت شيئا . ». فابتسمت ابتسامة الرضى وقالت : « قدرت ان في ذلك خيرا لك ولي . ».

كان الفندق جميلا . مريحا ، له مراح واسع تظلله الاشجار، والازهار ، ويشرف على الاودية ، وعلى الجبال المقابلة ، وقد انتشرت فوقها ، وعند سفوحها قرى ساحرة البهاء ، والرواء ، ومنها بيت مري ، وبرمانا ، وبعبدات ، وسواها .

وكنا بعد ظهر كل يوم نتمشى حتى محطة القطار ، ونعرج في ايابنا على المقهى الكبير في البلدة ، الغاص بالناس . ومن المقهى كذلك كنت اسرح الطرف في القرى المنتشرة في الوديان، وعند سفوح ، وقمم الجبال ، باسمة ، وادعة ، متلألئة ببيوتها البيضاء ، وبسقوفها من القرميد الجميل ، المرصوف . وكان بصري يمتد ما شاء له الامتداد في السماء الزرقاء ، الصافية ، والافق الوردي المترامي ، فأشعر بارتياح ليس مثله ارتياح ، وبالامن والطمأنينة ، بعد ان بعد عهدي بهما ، كل البعد .

كانت الدور ، والقصور ، والدارات ، آنذاك تبنى على طراز فريد ، ليس بينه وبين العمارات التجارية التي سادت أية صلة. كانت الدور تبنى على أساس ذوق رفيع ، ويتوخى اصحابها من بنائها الجمال الفني الاصيل ، والمظهر الريفي الاخاذ ، وليس التجارة ، والطمع في الكسب الوافر ، الميسور ، الذي يفسد كل شيء ، ويشوهه . وتمنيت في نشوتي هذه ، لو زار اهل الارض جميعا وطني الجميل ، وكتب لهم ان ينعموا بما انعم به

من طبيعة بكر ، ومن مناخ معتدل ، ومن سماء جلواء ، لا يعكر صفحتها سحاب عابر ، ولا دخان منتشر ، ولا غبار ثائر . لقد ارتسمت مفاتنها في ناظري كما كنت ارسمها في لوحاتي يوم كنت بعيدا ، شريدا ، نزيل السجن البغيض .

غير ان وطني ، ويا للاسى ، واللوعة قد اصبح اليوم ميدانا للصراع ، والاقتتال ، ومسرحا للجريمة ، والارهاب ، وموئلا للعصابات على اختلافها ، وتباين مآربها ، واهواء رجالها ، من سياسيين ، وتجارا ، وعملاء للامبريالية ، ومن مجرمين محترفين ، وهواة ، ومن مغتصبين للاموال ، والاعراض ، وممتهنين للحريات ، والكرامات .

لقد دنست ارض بلادي ، وشوهت معالمها ، وبدلت من أمنها خوفا ، ومن طمأنينتها قلقا ، ومن جمالها ، وسحرها ، قبحا ، ليس بعده قبح .

وفكرت بناظم حكمت ، وما أبدى لي في شأن رغبته في ان يقيم بلبنان ، لكنني لم أبح بذلك لاحد ، وقد اخفيته على والدتي ، الى أن يصبح يقينا ، قريب التحقيق .

..وكان علي أن أعود الى استنبول ، لا محالة ، في اواخر تشرين اول (اكتوبر) ، لاتقدم الى امتحانات الاكمال ، وانتقل بعدها الى السنة الثالثة في كلية الاداب . لذلك ، وبعد ايام هذه الاجازة الممتعة ، عدنا الى بيتنا الصغير في الضاحية الجنوبية من بيروت .

لم يكن قد وصلني شيء من انباء ناظم ، ولكن بعد اسبوع تلقيت رسالة من علي غالب ، عليها طابع بريد من حلب ، يفيدني فيها بأنهما ارجأا سفرهما هو ، وناظم الى موعد آخر ، دون ان يوضح لي سبب ذلك .

..لما عدت الى استنبول ، وقبل طلبي لدخول السنة الثالثة في كلية الاداب بالجامعة ، توجهت الى « ايرنكوي » ، لازور ناظم حكمت ، وبيرايه ، وافراد الاسرة . ثم لاعلم السبب الذي جعله يرجيء سفره الى لبنان ، كما كان يعتزم .

وكنت أعلم ، منذ ايام السجن مدى تعلق ناظم بمدينة استنبول ، ومقدار الحب الذي يكنه لها في الصميم من عقله ، ووجدانه ، على انها مهوى فؤاده ، ومصدر الهامه ، وان فيها دون سواها قوام وجوده ، وكيانه . وقد روى في احدى قصائده انه صادف ، حين كان في «بورغاز » ببلغاريا ، مركبا كان يحمل اسم « استنبول » فقال : « كان هذا المركب آتيا من استنبول، حاملا اسمها.. فما وسعني الا ان تلمسته باناملي ، فاشتعلت للمسه نارا .».

وقد عاب اناس حب ناظم لاستنبول ، وتعلقه بها ، زاعمين ان في ذلك نقصا في التزامه . ومن هؤلاء بعض اعضاء الحزب الشيوعي التركي السري... واني لاتساءل: من ذاك الذي اعطى النضال اكثر مما اعطى ناظم ، ومن بذل لقضيته فوق ما بذل . واني لاعلن صادقا انني لم أجد شاعرا يمكن ان يقارن بناظم في هذا المضمار ، ولا شاعرا ارسل من الشعر ما أرسله ناظم في هذا المجال .

واذكر في ما اذكر قصائده : « برقية آتية من الليل » ، و «لماذا انتحر بينرجي» ، و «رسائل الى تارنتار بابو »، و«ملحمة الشيخ بدر الدين» ، وسواها الكثير . وفي هذه القصائد من تمجيد للسلام ، والمحبة ، والاخوة بين البشر ، ما لا يجارى فيه ولا يبارى .

ان في شعر ناظم عرضا مخلصا لجميع القضايا الانسانية وتعرض لمشكلات عدم المساواة ، والاستغلال ، والانانية ، ولبربرية الرأسمالية ، قديمها ، وحديثها . وفيه اشادة بالمحبة الخالصة، وبالاخوة الصافية ، بالطهر، وبالبراءة، وبما الى ذلك من القيم الانسانية ، والحضارية المثلى . ولم يتبن احد ، كما تبنى آلام الانسان ، ومآسيه ، ولم يشعر احد شعوره بشقاء المحرومين ، وبمعاناة المعذبين في الارض . وكان شعره ، نداء هادرا كالسيل في وجه الظلم ، وكان كالنغم الحاني ، يحمل العزاء الى النفوس، والسلوى الى الارواح ، والقلوب .

صداقات نـاظم

عدت في عام ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥ المدرسي الى حياة الطلاب المألوفة . وكنت امضي عطلات نهاية الاسبوع في « ارنكوي » ، بضيافة ناظم ، ثم اعود في الصباح الباكر من يوم الاثنين الى استنبول . ولم ترق لي الاقامة في بيت الطلبة ، فأستأجرت غرفة بمدخل « استديو » قرب الجامعة ، في حي « بايزيد » ، وكان بمثابة الحي اللاتيني ، من استنبول .

كانت العطلات المدرسية التي أمضيتها في ضيافة ناظم من أفضل ايام الصبا . وفيها كنت اتعرف على اصدقاء ناظم الكثر ، الذين كان يستضيفهم اياما ، بما عرف عنه وعن بيرايه، ووداد ، وفخامت ، من حسن وفادة . ومن الذين تعرفت بهم الاخوة ايبكجي ، أصحاب الستوديوهات السينمائية « ايبك » ، والمحامي اسماعيل حقي ، الذي كان في الاربعين من عمره ، وهو من اكثر المعجبين بشعر ناظم ، والرسام الشهير علي سعاوي ، الذي كان يصمم أغلفة كتب ناظم .

وفي ضيافة ناظم تعرفت بالمهندس ، الشاعر عصمت حسني، والشاعر الفتي اورخان ولي ، الذي ذاع صيته بعد ذاك ، واصبح من أشهر شعراء الشعر التركي الحديث .

كان ناظم ينزل الى استنبول ليعمل في استديو « ايبك »، في رحلة طويلة من ايرنكوي الى « ينشان طاشي ». فيستقل القطار من ايرنكوي حتى رصيف الميناء في قاضي كوي ، ثم يستقل المركب الى « غالاطه » . ومنها يستقل القطار اذا ما تيسر له ، الى « نيشان طاشي »، وان لم يتيسر له قطار ، كان عليه ان يبدله مرتين .

وكانت هذه الرحلة تستغرق ساعتين ، او تزيدان ، وكذلك في العودة ، وفي ذلك كثير من المشقة ، ومن ضياع الوقت .

وكان يمر في طريق عودته في غالب الاحيان بشارع « الباب العالي » ، وهو شارع الصحافة ، وشارع المكتبات . وهناك كان

يزور اصدقاءه من الكتاب الصحفيين ، امثال والا نور الدين ، صديقه من عهد اقامته في موسكو ، وسواه .

وكانت شقيقة والا نور الدين زوجة لاحد الاثرياء اللبنانيين، وتقيم في بيروت ، وقد طلب الي نور الدين ، في احدى زياراتي لبيروت ، ان اتفقدها في دارها ، ففعلت ، وكانت سيدة كثيرة الرقة ، واللياقة ، والجاذبية . وحين عزمت على العودة الى استنبول ، مررت بها لاودعها ، واقف منها عما تريد ان ابلغه لاخيها . فاذا بها قد هيأت حقيبة كبيرة ، رجتني ان احملها اليه، وكان فيها عشرة قمصان من الحرير ، وربطات عنق ، ومحارم، وسواها من الملابس ، والحاجيات .. وحين سلمتها الى نور الدين عند وصولي الى استنبول فرح بها فرحا لا حدود له ، وحار كيف يشكرني.

كان ناظم يحب لقاء صديق قديم آخر هو الكاتب نظام الدين نظيف ، احد قدماء خريجي « جامعة شعوب الشرق » في موسكو . كما كان يحب لقاء الزوجين الصحفيين الكاتبين محمد زكريا ، وصبيحة سرتل . وكان محمد زكريا يعتبر أقدر الصحفيين التقدميين آنذاك . وكان واسع الثقافة ، غنيها ، وقد تابع دراسته العليا في جامعة « كولومبيا » بالولايات المتحدة ، وفي جامعة السوربون بباريس . وكان ما ينشره الزوجان الكاتبان موضع اعجاب المثقفين ، وكان واسع الانتشار ، والتداول .

وكانت صبيحة سيدة عالمة ، وكاتبة مرموقة المكانة ، وقد تابعت دراستها في جامعة كولومبيا ، وربما في جامعة السوربون كذلك . وباستطاعة المرء ان يقارنها بـ « روزا لوكسمبورغ » ، لما لها من اثار ادبية لقيت الترحيب ، والاقبال في الاوساط الادبية.

كان الزوجان النابهان اكثر الاصدقاء اقبالا على زيارة ناظم، والتردد على دارته . وكانت قد سرت في ذلك العهد شائعات بأن صبيحة عاشقة لناظم ، متيمة به ، شأنها شأن كثيرات من النساء. واغرب ما في الامر ان افراد اسرة ناظم كانوا يرددون ذلك ، كما

لو انه كان حدثا عاديا . حتى ان بيرايه لم تكن تظهر السخط ، ولا الغيرة .

واميل الى الاعتقاد بان عاطفة صبيحة حيال ناظم لم تكن تتعدى حدود العاطفة . وليس في ذلك ما يثير العجب ، فقد كان ناظم يستهوي النساء ، فيقعن في حبه ، بوسامته ، وبسحره، وبقوامه الفارع ، الذي يبلغ مترا ، واثنين وتسعين سنتيمترا ، وبعينيه الفاتنتين ، ثم بشعره العبقري ، وحديثه الطلي ، وذكائه الوقاد . وكان عاشقا ذكيا ، يفتن النساء ، وتفتنه النساء.

ومن النساء اللواتي اعجبن بناظم بالغ الاعجاب مغنية اوبرا انقره ، « السوبرانو» السيدة (ب.س) ، التي زارته في سجنه ببورصة . وقد سنحت لي فرصة لسماع صوتها بعد ذاك ، وكانت سمراء ، ممشوقة القد ، معتدلة القوام ، جذابة التقاطيع ، بل مثيرة التقاطيع ، اذا صح تعبيري . وكان صوتها رنانا ، شجيا ، دافئا ، عميق الجرس ، والصدى .

وفي أحد الايام صادفت في ضيافة ناظم المغنية ، الاكثر شعبية في تركيا آنذاك ، وهي السيدة «صفية آيلا »، بصحبة صديقنا ناجي سعد الله ، الذي كان يعتبر اكبر مخبر صحفي ، وكانا يعيشان معا .

وصفية ليبية الاصل ، وقد جيء بها الى استنبول مع بعض اليتيمات الليبيات ، في خلال غزو الايطاليين لليبيا ، الذي ذهب ضحيته آلاف الليبيين ، بين قتلى ، ونازحين ، قدر عددهم بما يفوق نصف عدد سكان ليبيا ، وهو في حدود المليون آنذاك .

وقد تابعت صفية تعليمها في معهد المعلمات باستنبول مع صاحباتها اليتيمات . وقد تعرفت بواحدة منهن كانت تدعى زينب، ونشأت بيننا صداقة دامت اعواما طوالا . وكان آخر ما بلغني عنها ما اخبرني به صديق تركي ، من انها تقاعدت ، وانفردت في مقاطعة صغيرة من مقاطعات بحر ايجة .

كان صوت صفية الرخيم ، القادر قد لفت معلم الانشاد

في معهد المعلمات ، فاشار بان تتابع دراسة اصول الغناء في معهد الموسيقى الشرقية في استنبول . وبعد ان أتمت دراستها برزت مواهبها ، وتجلى تفوقها ، وابداعها ، حتى اعتبرت بمثابة امكلثوم التركية . وارى ان في صوتها من العاطفة، والدفء ما يفوق صوت ام كلثوم .

وفضلا عن ذلك كانت صفية واسعة الثقافة ، كبيرة القلب، مرهفة الحس ، تشاطر الفقراء والمحرومين ، والمعذبين معاناتهم. وكانت تقيم حفلات، مجانية لهؤلاء الذين لا يقدرون على دفع اجر الاستماع الى حفلاتها . وحين حصلت على الثروة كانت تقدم هبات سخية الى المؤسسات الخيرية، مثل مؤسسة الهلال الاحمر، ومؤسسة العناية بالايتام ، وسواهما .

كانت هذه السيدة العظيمة على الصعيدين الانساني، والفني تأتي لزيارتي في عام ١٩٣٨ ، بمنزلي في حي « شيلي » بالقرب من « نيشان طاشي » ، وبجوارمنزل ناظم آنذاك ، يصحبها صديقها ناجي سعد الله . وكنت ابتهج بهذه الزيارات ، التي كنا نتبادل فيها اطيب الحديث ، واجمل الحوار ... ولا اكتم انني كنت متيما بها ، معجبا بمزاياها الكثيرة ، المحببة ، اعجابا لا ينتهي .

وكان من بين الذين يترددون على دارة ناظم رجل في الاربعين من عمره ، يدعى عدنان ، وكان الجميع يلقبونه بالاخ الاكبر ، وكان غريب الاطوار ، متطيرا ، يخشى الخروج الى الناس، او التجول في المدينة . ويقال ان سبب ذلك انه كان قد اصيب بمرض السل ، يوم كان يتابع دراسته في كاليفورنيا ، بالولايات المتحدة الاميركية . وكان كلما اتى الى دار ناظم ، وكثيرا ما كان يفعل ، يلقى رعاية خاصة ، ويعامل كأنه احد افراد الاسرة . حتى ان « سلما» كانت تصحبه في تنقلاته ، وفخامت تعنى به عناية الشقيقة بشقيقتها . وكان عدنان لا يفتر عن سرد مغامرات عهد الشباب في كاليفورنيا ، وكانت مغامرات طريفة .

ناظم .. الناشر الفــاشل !

كان ناظم يكسب الميسور من معاشه ، بالعمل في استديوهات « ايبك » ، وفي كتابة الكتب ، والمقالات للصحف . الا انه كــان ينفق نصف دخله في مساعدة اصدقائه ، ومريديه المعسرين . ولم يكن يعلم بذلك الا بيرايه ، واياي ، على انني بمثابة ابن لهمــا ، جدير بثقتهما ، وبكتمان اسرارهما .

وفي عام ١٩٣٦ انتقل ناظم الى حي « تقسيم » ليكون قريبا من مقر عمله في الاستديوهات ، الذي لم يكن يبعــد عن داره الجديدة سوى ما تستغرقه عشر دقائق بالترام ، او الاوتوبيس . وفي تلك الفترة خطر لناظم ان يضع كتابا ينتقد فيه النازية ويفند آراءها ونظرياتها ، او بالاحرى نظريات « روزنبرغ » العنصريــة، وكان عالم الاجناس الذي استند اليه النظام الهتلري في تنظيره.

وطلب ناظم الي ان أعينه في ما هو بصدده من بحث،وتوثيق، فترجمت له من الالمانية بعض فصول من كتابات روزنبرغ ، واتم ناظم كتابه ، وعهد الى الرسام علي سعاوي بتصميم غلافه . وقد شاء ناظم ان يطبع كتابه على نفقته ، محاولا ان يتعاطى النشر ، ويدلي فيه بدلوه . غير ان تجربته هذه قد فشلت ، وكلفته غاليا. ذلك بانه وكل اصدقاءه ، ورفاقه امر بيع الكتب ، وتوزيعها ، فلم تعد عليه بمردود ، ولم يجن منها سوى الخسارة .

وحين ذهبت الى بيرايه لاسدد ثمن الكتب التي كان مــن نصيبي بيعها وتوزيعها ، ابتسمت في مرارة وقالت : « انك ايها الاخ الاصغر الوحيد ، الذي جاءني بالمال من بيع الكتب »...! ولما ابديت استغرابي من ذلك ، اضافت : « اجل يا بني ، لقــد باعوا الكتب ، ولكنهم رأوا ان ليس من حاجة ليسددوا لي ثمنها.» وكان في تصرف الاصدقاء جحود ، او اهمال اذا رجح حسن الظن، لا يستحقهما ناظم الذي عرف بسخائه ، وبسطة يده ، وباحسانه للاصدقاء ، والرفاق جميعا .

كان ذلك بالنسبة الي الخيبة الاولى في تجربة التعامــل ،

والصدمة الاولى التي تلقيتها من وسط كنت اعتبره منزها في التكافل ، والتضامن ، والاخاء ... ولم تكن الخيبة آخر الخيبات، ولا الصدمة آخر الصدمات ..!

تحرك في الدراسة والصحافة

كان عام ١٩٣٥ حافلا بالنشاط ، الذي بذلته في الدراسة تعويضا عن ايام السجن . وكان علي ان اعوض عن الدروس التي تخلفت عنها في معهد الفنون الجميلة ، فضلا عن كلية الاداب . وقد تعرفت على الكثيرين من الزملاء النابهين في اكاديمية الفنون الجميلة ، منهم « كمال آلب » ، واحمد سامي ، وكانا يدرسان الهندسة المعمارية . وكان كمال يتيما يرعاه عم له كان ضابطا في هيئة اركان حرب الجيش ، ويتكفل بدفع نفقات دراسته . اما سامي فكان من « مفيسا » ، المقاطعة القريبة من أزمير ، وكان ذووه ميسورين ، وفي رغد من العيش .

كنا اصدقاء نكاد لا نفترق ، وقد جمعت بيننا روابط من الود ، والتصافي لا تنفصم ، وكنا نألف مطعما شرقيا في «غالاتا» نتناول فيه ما يطيب لنا من طعام . وكان كمال لا يتخلف عن زيارة ناظم من حين الى آخر، وكان ناظم شديد العناية بتتبع دراسة كمال ، في الهندسة ، وكان يدعوه « مهندسنا الصغير ».

وكان من رفاقنا في تلك الفترة كذلك عصمت حسني المهندس والشاعر المجيد ، وكان ناظم يعجب بشعره ، وبقصائده التي كانت تتميز بحرارة العاطفة ، وبالاخلاص ، والشجى الذي يحرك المشاعر . وكان عصمت مولعا بشعر ناظم ، يتلوه كلما اجتمعنا في جلسات ادبية حلوة ، كما كان مثالا للجيل الطالع بكل مناقبه ، وطموحاته ، وامانيه .

وفي عام ١٩٦٥ زار باريس على رأس وفد من مدينة انقره،

وكان مستشارا بلديا عاما للعاصمة التركية . وكانت سعـــادتي غامرة حين لقيته ، ونعمت برفقته .

وفي عام ١٩٣٦ تركت الاقامة في حي « بايزيد » ، لاستقر في استديو ، قريب من مسكن ناظم ، مطل على مناظر « اسكدار » الرائعة . ومفاتن البوسفور ، التي لا تنمحي من الذاكرة . وكـــان ناظم يأتي لزيارتي في احيان كثيرة ، عند عودته من عمله فـــي الاستديوهات ، فنتبادل الاحاديث المشوقة ، والذكريات، حلوها، ومرها . وقد اتاني في احد الايام حاملا هدية قيمة ، كانت تمثالا الينين ، نحته واحد من اصدقائه ، فسررت به اعظم السرور ، لما كان عليه من براعة واتقان .

وكنت في ذلك الحين قد شرعت في نشر اقاصيص فـــي صحيفة « سون بوسطا » ، التي كان برئسها محمد زكريا ، احد اصدقاء ناظم الخلص . وبفضل وساطة ناظم تمكنت كذلك من ان اقوم ببعض الترجمات ، واحرر بعض المقالات في الصحيفة . وكان اول ما كتبت « قصة جبان » ، أعجب بها ناظم اعجابا شديـــدا ، وحملها الى الصحيفة لتنشرها . فلمانشرت شعرت بزهو بريء، وبانفعال ، يصحب عادة الاعمال الموفقة لكل كاتب ناشيء .

ولم يكتف ناظم بذلك ، فاقتادني الى مدير الصحيفة«جهاد بابان » ، الذي رحب بي ، واتاح لي ان انشر قصتين في الصحيفة كل اسبوع . ومما وقع عليهنظري في الصحيفة آنذاك مســودة قصة ناظم حكمت « الدم لا يتكلم » ، وكانت من اجود قصصـــه، واكثرها تأثيرا ، والتزاما ، بما يؤمن به ، ويناضل في سبيله .

وبعد زمن ليس ببعيد ، تخلى محمد زكريا عن عمله فـــي الصحيفة ، لينشيء صحيفة « طان »، التقدمية ، والتي عرفت بغنى ، وبكثافة اخبارها ، ومقالاتها ، في جميع ارجاء تركيــا . وكلفت فضلا عن كتابة الاقاصيص ببعض الترجمـــات ، واجراء المقابلات ، والريبورتاجات ، وزاد دخلي من جراء ذلك زيـــادة محسوسة . ونجحت الى جانب ذلك في ان اثبت لنفسي شهرة في الصحف آنذاك .

مثال ذلك انني لم اجد صعوبة في ان انشر اقصوصتين في اكبر صحيفة « الجمهورية » ، كبرى صحف استنبول ، وكان صاحبها النائب يونس نادي ، واحدا من رفاق رئيس الجمهورية كمال اتاتورك .

كان ناظم يشير علي بان امتهن الصحافة ، وان اعمل في مجال النشر بالتحديد . غير ان هذه المهنة لم تكن تغريني الاغراء الكافي، لاندفع في مجالاتها . ذلك لانني مع حداثة سني ، خبرت ما يحيط بها من دسائس ، ومن تنافس غير شريف ، ومن تحاسد بين الكتاب ، والصحفيين .

وفي اية حال ، انصرفت الى نشاط لا حدود له ، فكنت اترجم عددا كبيرا من اقاصيص « انطون تشيخوف » ، ورواية « اوكتاف فوييه » التي عنوانها « قصة فتى فقير » ، واعترافات جان جاك روسو ، وسواها .

وكان ناظم يراقب خطاي في هذا المجال ، ولا يبخل علي بتثبيت هذه الخطى ، وبالتأييد، والتشجيع ، حتى عرض علي ان اشاركه في كتابة «كلمة اليوم» بالتناوب، في صحيفة «اكشام» المسائية ، التي كان يوقعها باسم « اورهان سليم » الرمزي.

غير ان حادثا وقع ، جعلني اتخلى مكرها عن التعاون مع ناظم في هذا المجال . ذلك انني كتبت في زاوية « كلمة اليوم » بمناسبة وفاة تاجر السلاح المعروف « باسيل زخاروف » ، مقالا كان فيه بعض المغالاة ، والتطرف ، مما اساء الى ما كانت الصحيفة قد اعلنت من حياد في المواقف . وقد تلقى ناظم الصدمة ، فكان موضع مؤاخذة صاحب الصحيفة الذي كان قد تعهد له بعدم التعرض للشؤون السياسية في زاوية « كلمة اليوم » ..! ومن حسن الطالع ان الرجل كان صديقا من أقرب الاصدقاء الى ناظم، واكثرهم مودة له ، واحتراما .. وقد داعبني ناظم بعد ذلك قائلا: « ايها الاخ الاصغر، لقد كدت تقضي على حياة صاحبنا اورهان سليم ، بأسلحة باسيل زخاروف ..!» .

رفاق مروا ..

وكان من بين الذين يترددون على ناظم من المعجبين بـه ، وبشعره ، وادبه ، كمال طاهر ، وهو شاب عصامي ، كان يعمل مصححا في احدى الصحف اليومية . وقد تمكن بعصاميته ، ودأبه من ان يصبح كاتب قصة معروف وفي بداية الحرب العالميـة الثانية ، اعتقل ، وامضى سنوات في السجن ، الى جانب ناظم .

وقد علمت بوفاة هذا الصديق ، وهو في ريعان الشبـاب ، وابان العطاء . ولم يكن قد تيسر لي أن أقرأ له سوى واحـدة من رواياته . ذلك انني كنت خارج استنبول حين نشرت كتبـه ، ورواياته . وبلغني بعد ذلك ان احدى رواياته قد ترجمت الـى الفرنسية ، ونشرتها مجموعة من الناشرين الفرنسيين ، وعنوانها « تعرج القرية » .

ومن الذين عرفوا ناظم حكمت ، وافادوا منه آنذاك اعظم الفائدة ، الرسام علي صوير ، الذي تمكن بفضل ناظم من أن يصبح صاحب شهرة ، وان يهيء لنفسه عيشا لائقا . كان هذا الرسام موهوبا ، ولكنه كان انانيا ، انتهازيا ، ميالا الى حياة الرفـاه ، والبذخ ، يسترخص في سبيلهما كل شيء ، ويضحي بكل شيء .

وقد استقر بعد الحرب العالمية الثانية في روما ، حيـث عمل مصورا ، ومخبرا صحفيا عالميا . ومن الطريف ان عيدي امين دادا ، حاكم اوغندا آنذاك ، قد دعاه لزيارته ، واستضافه شهرا ، التقط له خلاله صورا ، كان يجيد التقاطها ، ويتقنه .

ومن بين الاصدقاء الذين كانوا اوفياء لناظم ، أثيرين عنده راسخ كوران ، الذي تطوع لخدمة بيرايه ، ولتلبية حاجاتها . في الاعوام المظلمة ، الصعبة ما بين ١٩٣٩ و ١٩٥٠ . وكان من اسرة كريمة بارزة ، فقد كان والده نائبا في المجلس ، وكـان خالـه واسع الشهرة ، ذائع الصيت . وراسخ هو الذي ترجم الـى التركية معظم مؤلفات « جون شتاينبيك » مبتدئا بقصة « عنب

الغضب » ، كما رسم خاله لوحة لناظم ، لم يرض عنها ، مع انها كانت حديث الناس .

وتجدر الاشارة الى ان راسخ كوران هو الذي حمل من سجن بورصة عام ١٩٤٩ ورقة طلاق بيرايه، التي بعث بها ناظم الى زوجته التي كان يحب . وقد تمت اجراءات هذا الطلاق الاسطوري الذي دهش له القريب ، والبعيد في ٢٣ اذار (مارس) من عام ١٩٥١ ، لدى حاكم صلح منطقة « قاضي كوي » .

واليوم ، وحين استعرض في طوايا الذاكرة هؤلاء الاصدقاء الذين عرفت ، وكانت لهم في نفسي المكانة الفضلى ، اشعر بالكآبة ، والوحشة ، والوحدة سيما حين اذكر مصارع بعضهم المأساوية ، ومن ذلك مصرع راسخ ، الذي انتحر بان قذف بنفسه من شرفة داره في الطابق الرابع من احدى العمارات . ذلك لانه كان يتوهم بانه مصاب بالسرطان ، ولا يرجى له شفاء .

ثم اذكر مصرع كمال آلب « مهندسنا الصغير » ، كما كان ناظم يدعوه ، ومصرع رفيقه احمد سامي ، وقد دهستهما سيارة عابرة ، كان يقودها سائق مخمور ، وذلك في يوم حفلة تخرجهما. وقد خلف كمال وراءه زوجة وولدين .

وأذكر كذلك مصرع المهندس ، الشاعر عصمت حسني بنوبة قلبية منذ عشر سنوات . وقد خلفه ولداه ، وهما مهندسان موهوبان ، وناجحان ، ليكملا عمله ، ومشاريعه الكثيرة .

ولم اعرف مصير الاصدقاء،والرفاق الاخرين،ما عدا(ف.ت) الذي التقيت به في عام ١٩٥٤، في خلال اقامتي بنيويورك . وكان قد هاجر الى الولايات المتحدة الاميركية دون ان تعترضه عقبات. ذلك ان زوجته كانت يهودية ، ذات صلات وصداقات عديدة .

كان لقائي به قرب الفندق الذي نزلت فيه ، فلما رآني كاد أن يكذب بصره . ثم دعاني مرارا الى زيارته بمنزله في«بروكلن»، فكنت انتحل في كل مرة عذرا ، وألفق سببا . ذلك لانني كرهت أن ألقى زوجته ، الصهيونية الشديدة التعصب والتطرف .

.. وكثيرون كثيرون من الاصدقاء ، والرفاق غابوا عن عيني ، ومنهم الذين لاقوا حتفهم ، مثل اورهان، وولي،واسماعيل حقي ، وعدنان ، ووداد زوج «فخامت» ، والاخوة أيبكجي ، وسواهم ...

ناظم نزيل السجون .. من جديد

في اوائل عام ١٩٣٧ انتقل ناظم بعائلته الى دار واسعة ، مؤلفة من تسع غرف ، وتقع في مكان لا يبعد سوى مائة متر عن مكان عمله في استديوهات « أيبك » بمحلة « نيشان طاشي » . وكان في ذلك ما يريح لناظم بعد عناء العمل ، ويجنبه الزحام في الترموايات ، والاوتوبيسات . ولبيت دعوة ناظم لزيارته في محل عمله ، فسر لرؤيتي وقال : « ها انت ايها الاخ الاصغر قد اتيت. كنت منذ لحظة أحدث « احسان » عنك . ولسوف نجري اختبارا لصوتك ، عسى ان يكون صالحا للعمل الازدواجي السينمائي (الدبلاج).

وكان ناظم يستهدف بذلك ان يزيد من دخلي ، غير انني كنت منهمكا في الترجمة ، وفي تحضير دروسي استعدادا لامتحانات اخر العام الدراسي ، وبابحاثي ، ودراساتي الخاصة في العلوم الاجتماعية ـ التاريخية .

غير انني رضخت لمشيئته ، حرصا على أن لا أصدم أمله ، او اخيب رجاءه . ولحسن الطالع فشلت التجربة ، وتبين ان صوتي لا يصلح لعملية « الدوبلاج » . وقد استاء ناظم كل الاستياء وحاول ان يخفف عني ، ما كان يحسب من خيبة فأل ، وضياع فرصة . وقد اجبته شاكرا اهتمامه بشأني ، وبما لم يوفر حيالي من بذل . واكدت له ان وقتي لا يسمح لي ، في اية حال ، ان اقوم بأي عمل، يشغلني عن دراستي ، وابحاثي.

كانت « سلما » اخت بيرايه تعيش في دار ناظم ، وكان

عدنان ، وفخامت ، يأتيان دائما لزيارة بيرايه ، وتبيت فخامت احيانا في الدار .

ولم يعد الذين تعودوا زيارة ناظم في « تقسيم » يترددون عليه في « نيشان طاشي »، او انني لم اكن اصادفهم هناك . ثم ان ناظم كان يعود من عمله في وقت متأخر من المساء . فقد كانت الاعمال الكثيرة المتراكمة ، تلح عليه ، وترهقه ، وكان مرض « عرق النسا » يؤلمه ، لوقوفه ساعات في اداء مهامه .

وما زلت اذكر حتى اليوم ، شخصا مريبا ، كان يتردد على دار ناظم ، مستفيدا من ان احدا من اهل الدار لن يقدم على طرده، أو مقابلته بما يتنافى واللياقة ، وحسن الضيافة . اما ناظم فقد كان مطمئنا ، او بالاحرى كان يعرف ان الشرطة تراقب داره . وكان يحيا حياة رب عائلة ، يعمل لمصلحتها ، ولما يعود عليها بالنفع ، ورغد العيش .

لم يكن الحديث في الدار يتطرق الى شؤون السياسة ، بل كان يتناول شؤون الادب ، وما يعتزم ناظم ان ينشر من كتب ، ومؤلفات ، كما يتناول انتاج الشعراء الجدد ، والانتاج السينمائي .

غير ان المحظور قد وقع ، مع كل حيطة ناظم ، وحذره ، وتحفظه . ذلك لانه كان مصدر قلق للسلطة ، التي كانت تخطط دوما لتتخلص منه ، ومن تأثيره ، بأية وسيلة .

حتى ان شائعات راجت حول محاولة تهيأ للاعتداء على حياته . وليس في ذلك ما يتنافى ورغبة السلطة في قتله . او اقصائه، او سجنه .

وفي ١٧ كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٣٨ ، اعتقل ناظم، حين كان في زيارة لنسيبه جلال الدين أزينة . فقد اقتحم رجال المباحث السرية منزل جلال الدين ، فجأة ، ودون تمهيد او اذن، أو انذار ، واقتادوا ناظم حكمت الى انقره.

ولم يفقد ناظم الامل ، بعد هذا الاعتقال الذي لا مبرر له، في الافراج عنه ، غير ان أمله لم يتحقق ، وظل يتنقل من سجن

الى سجن ، ومن معتقل الى معتقل، ليستقر بالنهاية في سجن بورصة اياه .

وظل ناظم كما عهدته ، متفائلا ، **وقد عبر عن ذلك في رسالة** بعث بها الى بيرايه من السجن العسكري في انقره في ١٩ اذار (مارس) عام ١٩٣٨ . ولم ينس في هذه الرسالة ان يخصني بمداعبة ، تلقيتها بحزن ، واسى ، عميقين . فقد طلب الى بيرايه في رسالته هذه ان تطلب الي ان لا اقدم على الزواج ، الا بعد أن يسترد حريته ...!» .

وفي رسالة اخرى بعث بها الى بيرايه من السجن العسكري في انقره ، طلب اليها « ان لا تسمح لاحد بزيارتها ، ما عدا علي فايق ، الاخ الاصغر ».

معركة الكرامة .. وفراق ناظم

.. كان العالم آنذاك يشهد مرحلة من الاضطراب ، والفورة، وكانت النازية ، والفاشية في أوجهما ، تنشران الاذى ، والدمار، والارهاب في كل الارجاء . وكان العالم في مثل ظلام غامر ، قبيل المآسي التي طغت عليه ، وذهب ضحيتها ما يربو على ثلاثين مليونا من البشر .. وكان الطابور الخامس مطلق العنان يعيش فسادا في كل مكان، وينشب انيابه المسمومة في كل كائن يعترض سبيله، ويعوق مسيرته الطاغية ، الرهيبة ، وآن الاوان ان تتوحد جميع القوى الديمقراطية ، والمعادية للفاشية ، وتعبيء نفسها لانقاذ البشر جميعا من الخطر الداهم ، المدمر . وكان كل انسان واع لحقيقة المعركة يشعر بواجبه في المشاركة الفعالة للتصدي لقوى الشر ، والعدوان التي لا تعرف الرحمة ، والمهادنة .

في تلك الفترة انقطعت عن الدراسة بطبيعة الحال ، وذهبت الى بيرايه لاعلمها بالامر ، وبأنني جندت نفسي ، شأن كل الاحرار،

لمقاومة العدوان الفاشي . وذلك ما فعلت في سنــوات الحرب الست ، من عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٤٥.

واندفع الشباب آنذاك ، مغامرين بارواحهم في النضــال الصعب ، وسقط كثيرون من اخوتنا ، ورفاقنا صرعى في المعركة المقدسة ، معركة الحرية ، والديمقراطية ، وكرامة الانسان .

وشاء القدر أن لا القى ناظم حكمت بعد ذلك ، وكان عزائي ان كلا منا قد نال نصيبه من أثر النضال ، وتبعة الصمود ، وعناء التصدي .

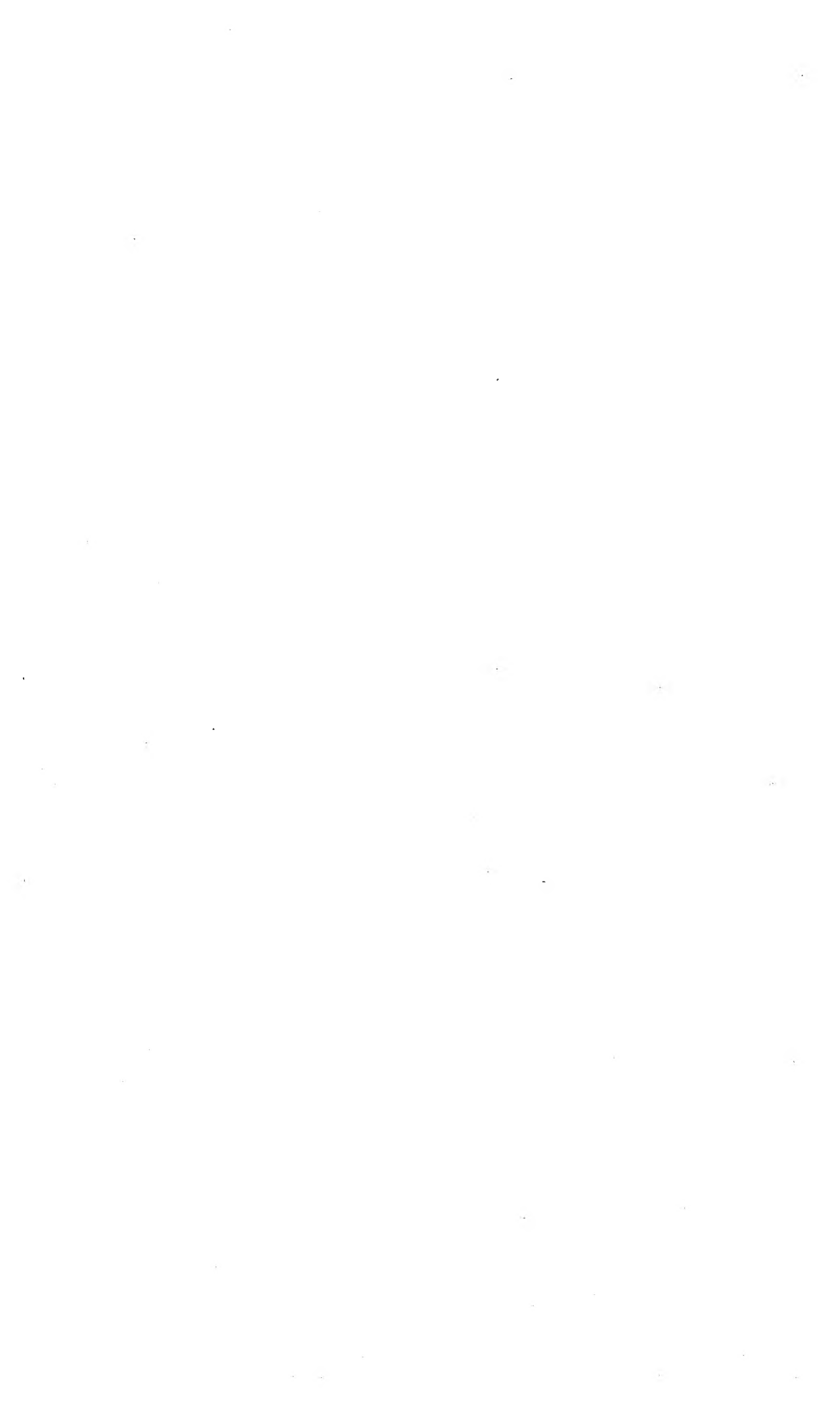
وفي عام ١٩٥٦ عرج على بيروت ، في عودته من مؤتمر كتاب آسيا ، وافريقيا . ومن سوء الصدف، والطالع انني كنت بعيدا عن لبنان آنذاك .

غير ان ناظم حكمت التقى بنفر من الاصدقاء ، ومنهم نسيبي الدكتور علي سعد ، الذي جمع العلم الى الادب ، والشعر ، والذي ترجم الى العربية مختارات من شعر ناظم حكمت ، ترجمة دقيقة، موفقة ، اضافت الى شعر ناظم رونقا ، وتألقا .

وكان ناظم يسأل عني كل من صادف في لبنان ، ويتسقط اخبار « الاخ الاصغر علي فائق » وحين زار بعد ذلك باريــس ، احاط به الاصدقاء ، والمعجبون بأدبه ، وشعره ، ونضاله الانساني الابعاد . ولم يتورع احد الطفيليين الذين احاطوا به كذلك من ان يخبره بأنني لم اعد اقيم في باريس ، لغاية في نفسه لم يتــح لي ان اقف عليها ، وادري غايتها وكنهها .

.. وبعد ، فقد تفرقت بالاصدقاء ، والرفاق السبــل ، وتشعبت بهم المسالك ، وتفرقت المعتقدات ، والقناعات . الا انني وناظم حكمت وفينا قسطا في البذل ، والعطاء لما كنا نؤمن بــه ، ونناضل في سبيل نصرته .

... وتمضي الحياة بالناس ، كما قدر لها ان تمضــي ، ويمضي التطور كما رسم له ان يمضي ، بطيئا وئيدا ، يبلغ غايته حينا ، ويتعثر احيانا ، ولكنه لا يعرف التوقف ، والجمود .



فهرست

الموضوع	رقم الصفحة
توطئة	٥
الفصل الاول	
سجن بورصة	١١
الفصل الثاني	
في الطابق الثالث	٣٣
الفصل الثالث	
الحرية وبعض الذكريات	٧٧